روبرت موزيل

ثلاث نساء



قصص

ترجمة: حسين الموزاني

منشورات الجمل



روبرت موزيل

ثلاث نساء



روبرت موزيل

ثلاث نساء

قصص

ترجمة : حسين الموزاني

منشورات الجمل

ولد حسين الموزاني العام ١٩٥٤ في ناحية «الميمونة» – العمارة، غادر العراق الى لبنان العام ١٩٧٨ ومن ثم الى المانيا العام ١٩٨٠، حيث يقيم حتى الآن في مدينة مُنستر. درس الأدب الألماني والعربي في جامعتي «مُنستر» و«عين شمس» (القاهرة). نشر قصصاً وقصائد وترجمات أدبية عن الألمانية في العديد من الجرائد والمجلات العربية. صدر له: خريف المدن، قصص (منشورات الجمل، ١٩٩٦)، إعترافات تاجر اللحوم، رواية (منشورات الجمل، ١٩٩٧).

روبرت موزيل: ثلاث نساء، قصص، ترجمة: حسين الموزاني

تمت الترجمة باتفاق خاص مع روفولت فرلاغ

Robert Musil: Drei Frauen

رسمة الغلاف: ايغون شيله

Postfach 600501
50685 Köln - Germany
Tel: 0221 73 69 82
Fax: 0221 732 67 63

تطلب كافة اصدارات «منشورات الجمل» من الناشر مباشرة أو من:

المركز الثقافي العربي: لبنان – بيروت ص.ب. (٥١٥٨/١١٣)

المركز الثقافي العربي: المغرب / الدار البيضاء ص.ب. (٤٠٠٦)

البحث عن الكمال

يعتبر الكاتب النمساوي روبرت موزيل واحداً من أهم الروائيين في الأدب الألماني الحديث ورائداً من روّاد النثر التعبيري الذي وضع كازيمير ادشمدت والفرد دوبلن وهاينرش مان بعضاً من ملامحه في بداية هذا القرن، إلا ان موزيل ظلّ بالرغم من ذلك مجهولاً لزمن طويل الى ان أُعيد إكتشافه بعد الحرب العالمية الثانية. ويعود هذا التجاهل بالدرجة الأولى الى طبيعة التطورات الفكرية والسياسية التي عاشتها البلدان الناطقة بالألمانية في فترة مابين الحربين العالميتين، لاسيما إنهيار الأمبراطورتين النمساوية والألمانية ونشوء الحركات القومية المتطرفة والأيدلوجيات العنصرية الفاشية فيما بعد والتي استطاعت الهيمنة على مقاليد الحكم في المانيا، مقصية القوى اليسارية والشيوعية والفوضوية المتنامية، التي إنعكست نشاطاتها أيضاً وبشكل واضح على ميدان الأدب والفن، فتكون الكثير من الحركات والمدارس الفنية والفكرية، منها على سبيل المثال: مدرسة علم النفس الفرويدي والفلسفة الوجودية والمدرسة النقدية لعلم الإجتماع والمذهبان التعبيري والإنطباعي في مجالي الفن والأدب ممثلان في جماعة «الجسر» Die Brücke و «الفارس الأزرق» Der blaue Reiter أو في المجلات الثقافية مثل «الفعل» Die Aktion و «منصة العالم» Die Weltbühne إضافة الى الكثير من التشكيلات والتنظيمات الثقافية الطليعية. أدّت هذه التطوّرات المتلاحقة الى إبعاد ومحاربة الكثير من الأدباء والمفكرين، والى تأسيس نمط «ثقافي» إستهلاكيّ مغرق في الفاشية والعنصرية وتمجيد الحرب، فكان المبدعون الحقيقيون أوّل ضحايا هذه التشويهات الفكرية المنظمة.

إلا ان السبب الآخر لتجاهل موزيل يعود إليه شخصيّاً، إذ انه لم يسع يوماً ليحظى بالشهرة وإهتمام الأوساط الأدبية، بالرغم من تجلّي موهبته المبكرة، لكنه، مع ذلك، ظلّ أميناً للأشكال الفنية العميقة والصادقة وباحثاً متعصباً عن الحقيقة. عندما طُلب منه ذات مرّة ان يسجل أهم أحداث حياته أجاب بشكل مقتضب: «١٩١١ / ١٤ متدرب وكتبيّ في معهد فيينا التقني. ١٩١٤ محرر في مجلة (دي نويه روند شاو) البرلينية. ١٩١٤ / ١٨... في ...الجبهة. ١٩١٨ / ٢٠ عمل كتابيّ في المكتب الرسمي لوزارة الخارجية. ١٩٢٠ / ٢٢ مستشار في وزارة الشؤون العسكرية.»

حاول موزيل عبثاً البحث عن تفسير لهذه القطيعة التي جوبهت بها أعماله، حتى انه شكا ذات مرّة في لحظة يأس «يالهذا الصيت العجيب! إنه قوّي، لكنه ليس مدوّياً. لقد أجبرت على التفكير فيه، بإعتباره مثلاً شديد التناقض على وجود ظاهرة ما وعلى عدم وجودها في الوقت ذاته.»

ولد روبرت موزيل، أو روبرت فون موزيل، في العام ١٨٨٠ بمدينة كلاكنفورت. كان أبوه مدير مصنع للأسلحة وأستاذاً جامعياً. دخل موزيل في البدء الكليّة العسكرية وتخرج منها برتبة ضابط، ثم إلتحق بالجامعة التي يحاضر فيها أبوه ودرس هندسة المكائن وعمل فيما بعد أستاذاً مساعداً في جامعة شتوتغارت. إنتقل الى برلين ليدرس الرياضيات وعلم النفس التجريبي والفلسفة، خصوصاً المنطق، ونال في العام ١٩٠٨ الدكتوراه في الفلسفة، لكنه رفض مهنة التدريس، بالرغم من العروض التي تقدمت بها جامعتا «غراس» و «ميونيخ».

إشترك في الحرب العالمية الأولى وعمل مسؤولاً عن مكتب التربية العسكرية قبل ان يتفرغ نهائياً الى العمل الأدبي. إنتقل مرّة ثانية الى برلين وإشتغل في الصحافة لينتقل من هناك الى فيننا كناقد مسرحي. بعد إنضمام النمسا الى الرايخ الألماني الثالث، غادر موزيل بلده وإختار جنيف منفى له

حتى وفاته في العام ١٩٤٢.

نشر موزيل الكثير من الأعمال والدراسات الأدبية، من أهمها: «إضطرابات الربيب تورلس» (رواية -١٩٠٦)، «توحدات» (روايتان قصيرتان-١٩١١)، «المستهامون» (مسرحية-١٩٢١)، «فنسنس وصديقة الرجال المهمين» (مسرحية-١٩٢٤)، «ثلاث نساء» (قصص-١٩٢٤)، «تَرِكَة في زمن الحياة» (مقالات وتأملات-١٩٣٨)، الجزءان الأوّل والثاني من «الرجل بلا ملامح» (رواية ١٩٣٠-١٩٣٢) وأصدرت زوجته بعد وفاته الجزء الثالث من الرواية في العام ١٩٤٣.

إستطاع موزيل إثارة الوسط الأدبي الألماني بروايته الأولى «إضطرابات الربيب تورلس» بسبب صياغتها الجمالية وملمحها الفنيّ غير المألوف، والتي لم يدركها أحد آنذاك باعتباره بداية للمذهب التعبيري في النثر، أو بسبب عمق المعرفة الفلسفية والتربوية التي إنبثت في ثنايا الرواية، أو إعتمادها أسلوب الإنتقال التطوري بالبطل من حالة سلبية ساذجة الى حالة ذهنية وعقلية متفتحة ومتنورة. كان هدف موزيل المعلن هو كتابة رواية تناقش مملكة الحواس بجميع إشكالاتها ومسائلها المحرمة والمباحة. والرواية من هذه الناحية مليئة بمشاهد الإثارة والإحتجاج العنيف على قيود المجتمع البرجوازي القديم الذي بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة على يد الرأسمالية الصاعدة في مطلع هذا القرن.

كتب موزيل عدة أعمال بعد روايته الأولى، منها مجموعتان قصصيتان هما «توحدات» التي كانت صعبة ومعقدة جداً في بنائها و«ثلاث نساء» المترجمة هنا والتي تعتبر واضحة المعنى الى حد ما، على العكس تماماً من القصتين الطويلتين «إتمام الحبّ» و«إغراءات فيرونيكا الهادئة» اللتين ضمتهما «توحدات» الصادرة في العام ١٩١١. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد موزيل يثير الإعجاب وحده، إنما الريبة وعدم الإرتياح أيضاً، بفعل طغيان

المنحى التعبيري على أسلوبه الذي يرفض التبويب والإنتماء الى الأشكال التقليدية. بعد ذلك حلّت فترة توقف شبه تام عن الكتابة إستغرقت عشرة أعوام، كتب خلالها مسرحية «المستهامون» التي جلبت له تهمة مفادها انه لايجيد الكتابة للمسرح وان هذه القطعة الدرامية تصلح للقراءة وليس للتمثيل. لكنه حاول الكتابة للمسرح مرّة ثانية، فألف كوميديا «فنسنس وصديقة الرجال المهمّين» ليتخلى بعد ذلك عن الكتابة للمسرح نهائياً، إذ انه قد حقق غايته منها، فأصبحت لغته قريبة من الحقيقة أكثر فأكثر، بل أصبحت مرهفة وفي غاية الدقة. يبدو انه كان يحتاج الى كلّ هذه التمارين والمقدمات لكي يتفرغ الى عمله الأساسي «الرجل بلا ملامح». كان هناك من يذهب الى القول ان موزيل ما كان ليكتب هذه الرواية الضخمة (حوالي ٢٠٤٠ صفحة) لو انه وقع على أسلوب فنيّ وجمالي في أعماله الأولى يتناسب مع طموحاته.

في البدء إعتمد موزيل أثناء كتابته للرواية على يومياته التي كان يتردد فيها أسم فريدريك نيتشه كثيراً، فاستطاع ان يجعل من أفكار نيتشه حقلاً واسعاً للتجارب، يستل منها مايشاء ثم ينوّع عليها. وهناك في يومياته المبكرة إشارات الى تأثره الشديد بنيتشه الذي «يرينا جميع الطرق والدروب التي يمكن ان تسير عليها أذهاننا وعقولنا، لكنه لايأخذ بأيدينا أو يسير أمامنا على واحد منها.»

إن رواية «الرجل بلا ملامح» مصممة منذ البداية كعمل أدبيّ معارض للقيم الوهمية والأخلاق الكاذبة التي يحملها العصر الرأسمالي الحديث، ويضع الكثير من الأسئلة التي يطرحها هذا العصر موضع الشك والتساؤل، بغية الوصول الى نظام إجتماعي وأخلاقي خال من الزيف والخداع.

يدور المحور الأول للرواية حول ثلاث شخصيات، تشكّل كلّ واحدة منها بؤرة مستقلة تمثل نمطاً شبابياً معيناً، ثم تبتعد الشخصيات الثلاث

عن المحور المركزي تدريجياً وعلى نحو متساو، إلا أنها سرعان ما تتكثف من جديد حاملة معها هذه المرّة طوائف وفرقاً إجتماعية متداخلة في بعضها البعض، فتتحول الرواية في نهاية المطاف الى بانوراما عصر كامل، تكشف لنا عن تطوّر المجتمع بجميع طبقاته وإنماط وجوده ومبادئه ومأساته ومهزلته.

لقد أدرك المهتمون بالأدب الألماني أهمية هذه الرواية الإستثنائية التي لاتضاهيها أية أعمال المانية أخرى، «إذ ان العمليات الجراحية التي أجراها موزيل بلا تخدير هي- حسبما يعتقد أدولف فريزيه، محقق أعمال موزيل- محاولة جادة لتمزيق أقنعة الشخصيات الكثيرة وهتك أستارها على نحو يذكّر بالتعريات المذهلة لجيمس جويس، ويمكن مقارنة الحدّة الصارمة التي يشرّح فيها المجتمع نقداً وتحليلاً بالمثابرة الحرفية الملحة لمارسيل بروست.»

يتناول الحدث المركزي للراوية فترةً زمنية قصيرة (من ١٩١٣ الى ١٩١٤)، تدور أحداثها في فيينا، عاصمة مملكة الدانوب القديمة التي إنهارت قبل إنتهاء الحرب العالمية الأولى إنهياراً مروعاً. جعل موزيل من هذه المدينة رمزاً للمجتمع الإنتقالي الذي يعاني من التمزق والتصدع عشية الحرب، كاشفاً عن الجذور السرية لهذه الأعراض الإجتماعية التي لاتفصح عن نفسها عادة بشكل واضح، متعرضاً الى الوقائع الحياتية في أوربا القرن العشرين، كالإخفاقات الإنسانية والنفاق السياسي والمواقف الإجتماعية الكاذبة، كلّ ذلك بأسلوب تطبيقي واقعي مبطن بالسخرية المرهفة والنكتة اللاذعة.

في القصص الطويلة «ثلاث نساء» المنشورة هنا نستطيع ان نتلمس بعضاً من العالم الغرائبي لشخصيات موزيل. هناك ثلاثة رجال مختلفو الأزمان والمصائر يقفون في مواجهة ثلاث نساء، يحيط بهن الغموض من كلّ جانب، ويتمتعن من ناحية ثانية بقدر مدهش من الثبات والتمسك بالواقع، فتنشأ

حالة متفردة من التناقض والإستلاب والتهشم الروحي، يجسدها موزيل بأسلوب تحليلي محكم الدقة صبور وشديد العمق، يبدو من خلالها وكأنه يريد مخاطبة النواحي الخفية واللاواعية في أعماق الإنسان، لكي يكشف فيها عن التناقض والتمويه والغيبية. أحياناً تختلط بهذا العالم الحلمي – الواقعي نوازع ورغبات نفسية وحسّية كثيفة يبدو فيها الرجال الثلاثة مخترقين من الداخل، شاعرين بالفراغ الهائل والهوّة التي صنعها القدر أو النساء أو الرجال أنفسهم. وبالضبط هنا، في رصد وتسجيل هذا التأرجح والتجويف الإنساني، تتجلى قدرة موزيل في أوضح صورها.

تنتمي مجموعة «ثلاث نساء» فنياً الى مرحلة مبكرة من إبداع الكاتب، بالأخص قصة «تونكا» الطويلة نسبياً، ويعود ذلك الى ان هذه القصة إعتمدت أسلوب السيرة الذاتية، حيث عرض فيها موزيل تجربته المأساوية مع عشيقته التي أمضى معها أعواماً عديدة، وتركت وفاتها المفاجئة صدمة عنيفة في نفس موزيل وشعوراً بالذنب لم يفارقه طوال حياته. وهذا ما يفسر لنا إمعان موزيل في إستخدام النقد الذاتي الذي يصل حد التجريح. كان موزيل يريد في البدء ان يجعل من هذه القصة رواية، إلا ان خاتمتها، أو بالأحرى صدقها، هو الذي فرض عليها أسلوبها وشكلها النهائي وجعلها في الوقت ذاته مختلفة فنياً عن القصتين الأخريين «جريجيا» و «البرتغالية» اللتين تختلفان، بدورهما أيضاً، من ناحية فنيّة عن بعضهما.

ويذكر موزيل في يومياته ان الكاتب النمساوي هوفمانستال إمتدح قصة جريجيا، لكنه لاحظ على الكاتب عدم إهتمامه كثيراً بمقدمة القصة ونهايتها، وفعلاً يبدو التسرع هنا الى حدٍّ ما واضحاً، خصوصاً في العبارة الأخيرة للقصة. غير ان موزيل لم يركز جلّ إهتمامه على هذه الأطر الفنية وحدها، بل على الملامح التجريبية والمغامرة الروحية الواعية التي تسعى الى إخضاع الميثولوجيا والقناعات الدينية الراسخة في المجتمع الى أكبر قدر من

النقد والرقابة الأدبية. وهو يفعل ذلك لا بصفته مصلحاً إجتماعياً أو عالماً، برغم شهاداته العلمية العالية، بل كأديب محض. والعجيب في أمر موزيل انه درس الميكانيك والرياضيات ليصبح كاتباً. لذلك فقد غلبت الكثافة التعبيرية وروح الإختراع على الجوانب الشكلية الأخرى، ويمكن القول ان قصص موزيل تخضع الى نظام دقيق صارم، لا يمكن معرفة مقوماته إلا بعد تفحص كلّ جملة بمفردها، ليس من ناحية لغوية أو بلاغية صرفية، بل من ناحية جمالية بحتة.

ويُلاحظ أيضاً ان موزيل يكثر من إستخدام الجمل الشرطية والإعتراضية التي لاتتلاءم في بعض المواضع مع الوصف ذي الطابع شبه الرومانسي، إلا ان ذلك يعود في الواقع الى التقنية الهندسية - الرياضية التي لاتريد ان تدع جملة واحدة تذهب ضحية الصدفة، ولأن إهتمام موزيل ينصبّ ليس بدرجة أساسية على الموضوع العام للقصة أو خاتمتها أو زاوية الرؤية فيها أو غير ذلك من التقنيات، إنما على «الجملة» الأدبية المكتوبة من الداخل، إذ لا يمكن ان يُختزل جوهر القصة في الموضوع أو العبرة «الرسالة!» أو النهاية، بل في حيثية وكيفية السرد وعلاقة العناصر ببعضها البعض وطبيعة المشاعر غير المألوفة والمفاجأة والإيماءات الميتافيزيقية والتلميحات الساخرة الذكية والقطع المباشر وإختيار مواقع الصدمات والغموض الذي يصل الى حد الإنغلاق وما الى ذلك من المهارات الحرفية التي يتقنها موزيل.

أحيانا تكون الرموز والإستعارات التي يستخدمها الكاتب متعددة المعاني، يصعب حصرها في معنى واحد، بل انها تستحيل على الترجمة اللاحرفية، لأنها وضعت في لغة مقصودة التعقيد مركبة لا يحسن صياغتها وكتابتها إلا موزيل وحده.

حسين الموزاني



جريجيا

في الحياة هناكَ وقت يمرّ ببطء يثير الإنتباه، كما لو أنه لا يريد ان يتابع خطاه، أو أنه يرغب فجأة في تغيير إتجاهه. في هذا الوقت بالذات يمكن ان يتعرّض المرء بكل بساطة الى مأساة.

هومو صبيّ صغير مريض، دام المرض أكثر من عام دون ان تتحسن صحة الصبي أو تزداد سوءاً. أوصى الطبيب له بأقامة في إحدى المصحات، لكن هومو لم يستطع ان يحسم أمره فيما إذا سيرافق ولده الى هناك، لأن ذلك يعني إنفصالاً لفترة طويلة عن ذاته وعن خططه وكتبه وحياته. شعر ان تردده هذا إنانية مطلقة، أو ربما مجرد تحلل ذاتي، إذ انه لم يفترق يوماً واحداً عن زوجته التي أحبها، ومازال الى الآن يحبها حبّاً قوياً، غير ان هذا الحب تعرّض للجفاء والإنفصام بعد مجيء الطفل، فأصيب بشرخ عميق واصبح مثل صخرة تخلل إليها الماء وأخذ يفتتها من الداخل.

تعجبَ هومو من هذه الصفة الجديدة للإنفصال، لأنه لم يلحظ، حسب علمه وإرادته، ان هذا الحبّ قد خبا أو تراخى يوماً، وبالرغم من ان مرحلة التحضير للرحلة كانت طويلة فانه لم يوفق الى فكرة مناسبة تساعده على تمضية الصيف المقبل بمفرده. كان يشعر بمجرد إمتعاض ومقاومة داخلية لفكرة الحمّامات المعدنية والمصائف الجبلية.

بقي هومو وحيداً في المنزل، وفي اليوم التالي إستلم رسالة تتضمن دعوة الى المساهمة في أعمال شركة تريد إعادة التنقيب عن الذهب في

مناجم فيروزنتال الفينيقية القديمة. كان صاحب الرسالة يدعى موتسارت أماديو هوفنغوت، تعرّف عليه هومو قبل بضعة أعوام في إحدى سفراته وأصبحا خلال أيام قليلة صديقين.

ولم يتسرب إليه أدنى شكّ بنزاهة المشروع وجديته. بعث هومو ببرقيتين، أبلغ زوجته في واحدة منهما بانه قد عزم على السفر وانه سيخبرها فيما بعد عن مكان إقامته، وأعلن في الأخرى عن موافقته على العمل كجيولوجي، ورغبته، ربما، في توظيف مبلغ كبير من المال في مشروع التنقيب عن الذهب.

التقى هومو بهوفنغوت في مدينة «ب» الإيطالية المعزولة الغنية التي تعيش على زراعة الأعناب والتوت. كان هوفنغوت رجلاً ضخماً وسيماً أسود الشعر دائب الحركة، في سنّ مقارب لسنّ هومو. كانت الشركة، مثلما عَلِمَ، تحظى بدعم أمريكي كبير، لأن العمل يجب ان ينجز بإسلوب متطور راق. وقد أرسلت لغرض التمهيد للعمل في سفح الوادي فرقة إستكشاف تشكلت من هومو وهوفنغوت وثلاثة آخرين، وتمّ أيضاً شراء الخيول وإحضار عدد مناسب من العمّال، إضافة الى معدات ستصل لاحقاً.

لم ينزل هومو في الفندق، إنما، ولسبب يجهله، حلّ ضيفاً على أحد معارف هوفنغوت الإيطاليين. أثارت إنتباهه هنا ثلاثة أشياء: الأسرة الشفافة المنعشة البرودة بشكل لا يوصف والتي وضعت في إطار أخّاذ قُدّ من خشب المهاغوني؛ ورق الجدار المزين بنقوش متناثرة، عصيّة على الوصف وخالية من البراعة والذوق، لكنها غريبة الطراز وغير قابلة على الإكتمال؛ وثمة كرسيّ هزّاز من الخيزران، عندما يتأرجح فيه المرء يتحول الى إهليليج مضطرب ينشأ من العدم خلال ثانيتين ثم يستعيد شكله كاملاً قبل ان يتلاشى وينكمش على نفسه من جديد.

كان هواء الشوارع قد خُلط من الثلج والجنوب. كان منتصف

مايس. في المساء تضاء الشوارع بمصابيح كبيرة مقوّسة مربوطة عالياً الى حبال مائلة، فتبدو الشوارع مثل الأخاديد والوهدات العميقة الزرقة والإنحدار تحت ضوء المصابيح، حيث يضطر المرء على السير في قاعها المظلم المكفهر، بينما تومض، هناك في الأعالي، الشموس الصغيرة الصافرة البيضاء، بعيدةً في الأفق. في النهار يطل المرء على جبل الأعناب والغابة التي إستطاعت ان تجتاز الشتاء حمراء صفراء خضراء. ولأن الأشجار لم تنزع أوراقها في الشتاء فقد تشابكت الأغصان الذاوية مع الأوراق الطرية اليانعة واصبحت مثل أكاليل القبور. كانت المنازل الصغيرة الوردية والحمراء والزرقاء تتطاول على نحو ظاهر مثل مكعبات وضعت في هذا المكان بتنوع وتباين حسب قانون أشكال إرتجالي خال من الإحساس. إلا ان الغابة في الأعالي كانت معتمة والجبل أسمه سلفوت. كانت الغابة مليئة بالحشائش الجبلية التي غطاها الصقيع بتموجات عريضة معتدلة تمر عبر الجبال المجاورة وتمتد بموازاة الوادي الجانبي الذي سوف تشقُ الفرقةُ الإستكشافية طريقها إليه.

إذا ما قدم رجال يبيعون اللبن ويشترون مسحوق ذرة يدعونه بولتينا، رجال من هذه الجبال، فانهم عادة ما يأتون بعيّنات كبيرة من الأحجار الكريمة والبلّور الذي ينفلق ويتشقق بفتنة كما الزهور البريّة، فتضاعف هذه التكوينات الخرافية إحساس المرء بان هناك شيئاً مبهماً يختفي وراء مشهد الريف هذا، شيئاً مغرياً منتظراً بشوق عارم يشعّ بإلفة مثل نجم وضّاء في بعض الليالي.

عندما هبطوا السفح، مخترقين سانت أوسولا قرابة الساعة السادسة قبل ان ينعطفوا نحو غدير جبلي تظلله الأحراش والشجيرات الصغيرة، طفقت تغرّدُ العشراتُ، إنْ لم تكن المئات، من البلابل. كان يوماً مشرقاً جميلاً.

حين توغلوا في العمق وجدوا أنفسهم في مكان عجيب معلّق على

متن جبل. كان الممر الذي قادهم إليه يتدرج من صخرة الى أخرى بإنتظام، فتتشعب من سفحه دروب قصيرة ناتئة التجويف كما لو انها جداول محفورة تنتهي بأرض معشوشبة. إذا ما وقف المرء وسط الممر فانه يلمح عن بعد بضعةَ بيوت فلاحية خربة متفرقة، وإذا ما تطلع من ناحية الأرض المعشوشبة فانه سيشعر وكأنه قد أعيد دفعة واحدة الى قرية مرفوعة على أعمدة في عصر ماقبل التاريخ، حيث يرى الدعامات التي ترفع بيوت القرية المقامة فوق نتوءات صخرية مرتفعة وقد عُلّقت المراحيض الى جانبها، فبدت مثل هوادج متأرجحة محمولة على أربعة قوائم مصنوعة من جذوع الأشجار. ولم تخل حتى الطبيعة الريفية المحيطة بالقرية من الغرابة، إذ انها كانت تتألف من سدّ منيع أكثر إرتفاعاً من نصف كرة مطوقة من الأعلى بتضاريس مستدقة تهوي فجأة في أخدود حاد يلتف حول مرتفع مخروطي الشكل مسوّر بغابة ويتمدد في حضن السدّ، فيتراءى المشهد برمته مثل كعكة نمساوية، أُقتطع جزء منها على هيئة جدول عميق ينفرج بإتساع عند المرتفع ثم ينخفض ماساً برفق الجهة الأخرى تلك التي إتكأت عليها ضفته حيث تنتصب القرية. وهناك، في الناحية الأخرى، عند قاع الجبل، فسحة صغيرة نبتت فيها أدغال وأعشاب تصل الى الركبة، تتقافز فوقها بضع غزلان وحيث يلقح ذكر طير الطيهود أنثاه عند قبّة الغابة. في الحقول التي تقع الى جهة الشمس تورقُ الزهورُ ذات التيجان والنجوم البيضاء والصفراء بين الأعشاب، زهور كبيرة تبدو كما لو ان شخصاً كريماً نثرَ كيساً من الدراهم الذهبية القديمة. وإذا ما تسلق المرء الجبلَ مسافة مئة قدم لأطلّ على مقطع سهلي غير واسع تغطيه الحقول والأحراش وعنابر الحشيش والبيوت المتفرقة المنفردة، بينما تشرف على العالم من الناحية الثانية كنيسةٌ صغيرة إنتصبت فوق حصن متقدم بمواجهة الوادي، تبدو في الأيام الجميلة مثل بحر يقع في مصبّ نهر. هنا

لا يستطيع المرء التفريق إلا بصعوبة بين آخر بُعد لهذا المنخفض الذهبي المبارك وبين إنطلاق قواعد غيوم السماء القلقة.

لقد كانت حياة جميلة تلك التي إبتدأت هنا. في النهار على الجبال، عند مداخل المناجم المطمورة، أو في أعمال تنقيب جديدة، أو على الطرق المؤدية الى قاع الوادي حيث تقرر إنشاء طريق فسيح في وقت قريب، أو السير في الهواء الكبير النديّ الذي نفحه ذوبان الجليد المتسارع.

وزّعوا نقوداً بين الناس وتسلطوا عليهم كما الآلهة، وألهوا معهم العالم كلّه برجاله ونسائه، فشكّلوا من الرجال وحدات عمل ثم فرقوهم على الجبال وأمروهم بالبقاء هناك أسابيع عديدة، وشكّلوا من النساء طوابير لتحمل إليهم الأدوات الإحتياطية والمؤن عبر مرتفعات شديدة الوعورة، وحوّلوا المدرسة الحجرية الى ورشة تصليح ومستودع لحفظ البضائع أو شحنها. إنطلق من هناك صوت رجالي حاد من بين صفوف النساء المثرثرات ينادي بأسمائهن واحدة تلو الأخرى، لغرض تعبئة السلال التي يحملنها على ظهورهن بمختلف الحاجيات الى ان تنثني ركبهن من الثقل وتنتفخ شرايين رقابهن. إذا ما وضعت الأحمال على ظهر فتاة شابة جميلة، ترى بصرها يظل معلقاً تحت العينين وتبقى شفتاها مفتوحتين الى ان تنخرط في القافلة ثم تعطى إشارة التحرك الى رتل الحيوانات التي غالباً ما تكون صامتة فتصطف وراء بعضها البعض ثم تضع خطواتها على الطرق الطويلة الملتوية. كانت أحمالهن نفيسة نادرة، كالخبز واللحم والنبيذ، ثم ان ليس هناك ما يوجب الخوف من الأجهزة الحديدية، لأن النساء سيتقاضين، إضافة الى الأجور النقدية، بعض الحاجيات التي تصلح للإستخدام المنزلي، لذلك فهن يحملن هذه الأشياء بسرور ويظهرن الإمتنان الى أولئك الرجال الذين جلبوا الرحمة والبركة الى جبالهن، فيا له من شعور جميل رائع! لا أحد هنا

يتفحص الإنسان ويتحرى هويته، مثلما هو سائد في العالم كلّه، لمعرفة فيما إذا كان هذا الإنسان قوياً مرهوب الجانب أو رقيقاً جميلاً، بل أنه يجد الحبّ الكبير وحده، لأنه قد جلب معه الخير والبركة، دون ان يشغل أحدٌ فكره بدخيلة هذا الإنسان أو أنماط تفكيره. كان الحبّ يعدو سريعاً مستبقاً الإحساسات كلها كالمنادي الملكي. كان الحبّ ممهداً مثل فراش وثير أُعدّ لضيف عزيز، إذ ان الناس هنا كانوا يحملون آيات المودّة والترحيب في عيونهم. كذلك تستطيع النساء إظهار الحب بشكل صريح حرّ، لكن أحياناً، عندما يقطع المرء حقل الحشائش، فإنه يلمح فلاحاً عجوزاً يلّوح بمحشته كما لو أنه الموت مجسّداً.

كان يقطن في طرف الوادي هذا بشر غريبو الأطوار. كان أسلافهم قد نزحوا من المانيا الى هنا في زمن الأبرشية التريدنتينية كعمال جبليين، وبات أبناؤهم يعيشون اليوم متفرقين عن بعضهم البعض مثل صخرة جرمانية أصابتها العواصف فنثرتها بين السكّان الإيطاليين. لقد إستطاعوا، على أية حال، الحفاظ على نمط حياتهم القديمة بمقدار النصف، أمّا النصف الآخر فقد تعرض الى النسيان، وهذا الذي إستطاعوا الإحتفاظ به لم يعدوا يدركون معناه. في كلّ ربيع كانت السيول العارمة تجرف أراضيهم، حتى ان السيول باتت تجرف البيوت التي كانت تنتصب على التل لتلقي بها في هوّة عميقة، كلّ ذلك دون ان يفعلوا شيئاً لأيقاف هذا التزحزح، ومن الناحية الأخرى أخذت الأزمنة الحديثة تقذف منازلهم بشتى القاذورات والفضلات المثيرة للإشمئزاز. كانوا يحتفظون بخزانات ودواليب رخيصة مطلية بالدهان وبطاقات بريد ساخرة، أحياناً تكون هناك أواني طبخ من المحتمل إنها قد أستخدمت في زمن مارتن لوثر. كان هؤلاء السكّان في الواقع بروتستانتيين، إلا أنهم، على الرغم من تشبثهم وتعصبهم

لدينهم، هذا التعصب الذي حماهم من الذوبان بالأقوام الولشية، ليسوا بالمسيحيين الجيدين. ولأنهم جميعاً فقراء فقد دأب عدد كبير من الرجال على ترك نسائهم بعد فترة وجيزة من الزواج لكي يهاجروا الى أمريكا بضعة أعوام، فإذا ما عادوا الى أهلهم فانهم يأتون بمبلغ قليل من المال الموفر والكثير من عادات المباغي المدينية وبقدر لا بأس به من الكفر والإلحاد، دون ان يأتوا بشيء من روح الحضارة القاطعة البتّارة.

سمع هومو منذ البداية حكاية أثارت إهتمامه على نحو خاص، حكاية وقعت أحداثها قبل وقت قصير، أي خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة. قيل ان فلاحاً مهاجراً منذ زمن طويل رجعَ من أمريكا الى أحضان زوجته، ففرحا بلقائهما بعضاً من الوقت، وتركا الأمور تأخذ مجراها الجميل الى ان نفدت المدخرات كلها، وبما ان المدخرات الجديدة التي ستبعث من أمريكا لم تصل بعد، فقد أضطر هذا الفلاح، شأنه شأن الفلاحين جميعهم في هذه البلدة، للتكسّب من بيت الى آخر، بينما بقيت الزوجة تدير شؤون المنزل المزرية. لكنه لم يعد الى زوجته مرّة أخرى. بدلاً من ذلك حلّ هذا الفلاح العائد من أمريكاً بعد بضعة أيام ضيفاً على بيت آخر باعتباره جاء توّاً من أمريكا، فتحدث الى زوجته بدقة عن يوم الرحيل الذي مضى عليه زمن بعيد وطلب طعاماً هو الطعام نفسه الذي تناوله قبل رحيله. كان أيضاً على علم بأمر البقرة التي لم تعد موجودة الآن، وتصرف مع الأطفال بطريقة ودّية محترمة، أولئك الأطفال الذين وهبوه سماءً مدرارة عوضاً عن تلك السماء الجدباء التي حملها دهراً على رأسه. بعد ان قضى فترة من الراحة والمتعة غادر هذا الفلاح أيضاً ليتجول حاملاً بضاعته القديمة، لكنه لم يرجع الى أهله ثانية.

وقعت في هذه البلدة أحداث مشابهة للمرة الثالثة والرابعة قبل أن يتوصل المرء الى حقيقة أن هذا الرجل كان نصّاباً محتالاً، إشتغل وقتاً

قصيراً مع الرجال في أمريكا، فاستطاع ان يستقصي المعلومات عن زوجاتهم، فأفتضح أمره وقبضت عليه السلطات وأودعته السجن، ومن يومها لم يعد يرى وجهه أحد. لقد أحزنت هذه الواقعة النساءَ جميعهنّ، إذ ان كل واحدة منهن ارادت ان تحتفظ بهذا الرجل بضعة أيام أخرى لكي تقارنه بذكرياتها وتفوّت بذلك الفرصة على كلّ من يريد النيل منها، ومما لاشكّ فيه هو ان كلّ واحدة منهن لابد ان لاحظت شيئاً ما، جزئية صغيرة، لم تتطابق مع مخزون الذاكرة، إلا ان أي واحدة منهن لم تكن مقتنعة من ان أحداً ما سيقدم على أفعال كهذه، ولم تكن لديهن رغبة ثابتة في كشف أسرار الرجل العائد الى ممارسة حقوقه الشرعية وإثارة المتاعب غير المجدية حول شخصيته وهويته.

هكذا كانت النساء هنا. سيقانهن ملفوفة بأقمطة من الصوف مزينة بأشرطة حمراء وزرقاء وبرتقالية بسعة اليد الواحدة. كانت المناديل التي يعصبن رؤوسهن بها أو يعقدنها على صدورهن مصنوعة من الأقطان الرخيصة ومطرزة بنماذج جاهزة من منتوجات المصانع العصرية، غير أنها توحي عبر ألونها، أو ربما عبر فصالها، وكأنها تعود الى زمن الآباء والأجداد. كانت ثيابهن أقدم بكثير من الأزياء الفلاحية المألوفة، لدرجة تبدو معها هذه الثياب وكأنها لمحة بصر متأخرة حملتها معها الأزمانُ المختلفةُ وتقلّبت بها الى ان إستقرت أخيراً ضعيفة وكئيبة، لكن المرء يشعر بوقعها بشكل واضح إذا ما لمحها بنفسه. ترتدي النساء هنا أحذية تشبة القوارب البدائية الصغيرة، حُفرت من الخشب الصلد، وقد ثُبّتت الى نعلها، بسبب وعورة الطرق، مشارطٌ من الحديد تشبه السكاكين، يعلقن بها أطراف سراويلهن الفضفاضة الزرقاء والبنيّة كما تفعل النساء اليابانيات. عندما تنتظر النساء هنا أحداً ما فلا يجلسن على حافة الطريق مثلما هو مألوف، إنما

يتربعن وسط الطريق نفسه، ويرفعن ركبهن الى الأعلى كما تفعل الزنجيات. وإذا ما تسلقن الجبل على ظهور الحمير، وهذا غالباً مايحدث، يجلسن مثلما يجلس الرجال، فيضعن سيقانهن المتصلبة فوق الإنحناء البارز للركب ويتركن أجسامهن تتأرجح من الأعلى بكل هدوء بفعل حركة الإرتجاج التي تحدثها هذه الحيوانات. كذلك تنطوي طباعهن على قدر كبير من الرقة والودّ لدرجة تثير الحيرة والإضطراب. حينما يقرع رجل عابر أبواب بيوتهن فأنهن يخاطبنه باعتداد الأميرات وكياستهن «تفضلوا بالدخول، أهلاً وسهلاً بكم»، وإذا ما تحدث إليهن أحد ما في خلوة تراهن يبادرنه بالسؤال «هل تسمح لي ان أحمل عنك معطفك؟»

عندما همس الدكتور هومو لصبية ذات أربعة عشر ربيعاً، وعلى جانب كبير من الإثارة، «تعالي الى عنابر التبن»، نطق العبارة بتلقائية، لأن التبن بدا له على حين غرّة طبيعياً كما هو العلف للحيوان. إلا ان الوجه الطفولي الذي كان متلفعاً بوشاح الجدات الذي إستدقت أذياله لم يصب بالفزع، إنما تأففت الصبية ونفخت من أنفها وعينيها في آن واحد بمرح وغنج، فانفلتت حيازيم نعلها الذي يشبه القارب وارتطمت بكعبيها وكادت تنقلب مع مذراتها على مؤخرتها، لكنها فعلت ذلك عمداً، كتعبير لطيف وتعجّب غير لبق من شهوة الرجل، كما هي الحال في الأوبرا الساخرة. ذات مرّة سأل هومو فلاحةً ضخمة بدت له مثل أرملة المانية تقف على منصّة المسرح:

– «هل مازلت عذراء؟ إنطقي! مازلت عذراء؟» ثم مسكها من حنكها ثانية، لأن المزحة يجب ان تحمل رائحة رجل شبق، فتركت المرأة حنكها يسترخي في راحته وأجابت بنبرة جديّة «نعم!» هنا فقد هومو الى حد ما سيطرته على نفسه، فسألها بدهشة:

– «عذراء حقّاً؟» ثم ضحك. في هذه اللحظة فترَ فم الفلاحة عن

إبتسامة.

- «هيّا، إنطقي!» أقترب منها وهو يهزّ حنكها برفق، فنفخت في وجهه وقالت ضاحكة:

- «كُنت!»

- «ماهو الشيء الذي سأحصل عليه إذا ما أتيت لزيارتك؟»

- «سأعطيك كلّ ما تريد.»

- «كلّ ما أريد؟»

- «نعم، كلّ ما تريد.»

- «كلّ شيء حقّاً؟»

- «نعم، كلّ شيء، كلّ شيء!»

كانت هذه مجرد عاطفة مشبوبة مُثلت بجموح وبراعة جعلته يضطرب تماماً أمام أصالة هذه المسرحية التي مُثلت على إرتفاع ستمائة متر. إجتاحه إحساس، لا فكاك منه، مفاده ان هذه الحياة، التي هي أعمق نشوة وألذ طعماً من الحياة القديمة، ليست حقيقية، إنما مجرد عبث تتجاذبه الرياح.

حلّ الصيف أثناء ذلك.

عندما رأى هومو للمرة الأولى خطَ إبنه المريض في رسالة حملها البريد له، تملكه ما تثيره السعادة من رعب والإمتلاك السرّي من رغبة، من عينيه حتى أخمص قدميه. وبما ان عائلته تعلم الآن بمكان إقامته، فقد بدا له ذلك مثل حصن منيع. إنه هنا الآن، وهم يعلمون كل شيء، إذ انه لم يعد مطالباً بتقديم أي إيضاح.

تفتحت الحقول بيضاء وخضراء وبنفسجية. لم يكن هومو على أية حال شبحاً. كانت هناك غابة خرافية بجذوع من الصنوبر يانعة الخضرة ترفة تنتصب فوق منعطف زمردي. من الممكن أيضاً ان يرقد البلّور الأبيض والأرجواني تحت الطحالب، ومياه الجدول تتدفق في وسط

الغابة ثم تلامس حجراً يشبه قرّاصة شَعر فضيّة عملاقة. لم يعد هومو يردّ على رسائل زوجته. لاشكّ ان الإرتباط بالآخر سرّ من أسرار الطبيعة. هناك وردة قرمزية مرهفة الرقة لا يضمها عالَمُ رجل آخر سواه، هكذا هو أمر الله، تماماً كالمعجزة. هناك علامة خفية في جسده ليس بمقدور أي كائن ان يراها، إلا بعد موته، بإستثناء شخص واحد. تراءت له هذه الخاطرة في هذه اللحظة بالذات مثل عبث مدهش عصيّ على الممارسة والتطبيق، لا يمكن إعتباره إلا ديناً عميقاً.

أدرك الآن مافعله بنفسه عندما قرر العزلة في هذا الصيف، تاركاً نفسه تستسلم لمجرى التيّار الذي تملكه. جثا هومو على ركبتيه وسط الأشجار الملتحية بالخضرة العميقة ونشر ذراعيه على نحو لم يعهده من قبل، وشعر كما لو ان شخصاً غريباً إستلب روحه من بين ذراعيه في هذه الآونة. شعر بيد عشيقته وهي تمسك بيده وبصوتها وهو يهمس في أذنيه، فبدت جميع المواضع في جسده وكأنها مُسّت للوهلة الأولى. تخيّل نفسه وكأنها شكل إنسلخ من جسد آخر، لكنه أبطل فاعلية حياته، حتى ان قلبه بات منكسراً ذليلاً أمام العشيقة، بل أصبح هو نفسه مثل متسوّل تنهمر التوسلات والدموع من روحه. بيد أنه بالرغم من ذلك، كان واثقاً من انه لن يتراجع عن قراره في البقاء هنا. وعلى نحو غريب إرتبط بإضطرابه مشهدٌ عام تآلف مع أريج الحقول التي تطوّق الغابة. وبالرغم من حنينه وتطلعه إلى المستقبل، فقد إنتابه هاجس بانه سيسقط مغشيّاً عليه هنا بين شقائق النعمان وأزهار اللاتنسيني والبراعم السحلبية والحنطيان وأوراق الحمّيض السمراء الفاتنة. تمددَ فوق الطحلب وتساءل «كيف يمكن ان آتي بك هاهنا؟»

شعر بجسده متعباً على نحو عجيب كالوجه المتشنج الذي فكّت أساريره إبتسامة.

كان يعتقد حتى ذلك الوقت أنه يعيش في عالم الحقيقة، لكن هل

سيبدو من غير الحقيقي إذا ما إرتبط بشخص محدد بشكل مختلف عن إرتباطاته بالآخرين؟ وهل من غير الحقيقي ان يكون هناك جسد واحد منفرد بين الأجساد اللامعدودة كلها يخضع له جوهرهُ الداخلي مثلما يخضع لجسده ذاته؟ وأن يرتبط جوعه وتعبه وبصره بهذا الجسد؟

عندما نما الطفل وترعرع فإنه نما مثلما تنمو أسرار الأرض في كيان شجيرة، هكذا بكل همّ ورضى دنيويين. إنه يحب إبنه دون شكّ، إلا ان الإبن قتلَ قبل ذلك الجزءَ الآخر الغيبي بالطريقة ذاتها التي سوف يعيش عبرها حياة أطول من حياة والديه. جعله هذا اليقين القاطع يصبح ساخن المشاعر، بالرغم من انه لم يكن يوماً يميل الى الإيمان، فأخذت أفكاره تشعّ في هذه اللحظة بنور خافت مثل نور الشموع الكابية وسط الضياء العظيم الذي فاضت به مشاعره. كان ذلك كلّه مجرد عبارة سرت في عروقه منذ الصبا ألا وهي: التوحّد هناك من جديد.

لقد حمل فكرة التوحّد معه دوماً، وفي تلك اللحظة إستسلم لهذه الفكرة، فتلاشت جميع التشوهات الصغيرة التي خلفتها سنوات المرأة الحبيبة من وجه الحبيبة نفسها، فصار ذلك يوماً خالداً متوحداً، إختفت فيه كل حالة تأمل شاملة وإندثرت ايضاً جميع إمكانيات الضجر والزنا، إذ ان أي رجل عاقل لن يضحي قط بمتعة الخلود الأبدي من أجل حماقة ربع ساعة. أحسّ بالحب في نفسه لأول مرّة وكأنه قربان سماوي، وأدرك سرّ النبوءة الشخصية تلك التي دفعت بحياته الى هذه العزلة المتفردة، فلم يعد يعتبر نفسه مجرد كنز أرضي، بل عالماً سحريّاً خاصاً به وحده، فتناثرَ تحت قدميه الذهبُ والأحجار الكريمة.

تحرر هومو منذ ذلك اليوم من الإلتزام مثلما يتحرر المرء من تصلّب في ركبتيه، أو من خُرج ثقيل فوق ظهره، الإلتزام بحب الحياة والرعب

من الموت. لم يحدث له ما كان يتوقع حدوثه، أي عندما يرى المرء نهايته المفجعة شاخصة أمامه، فينغمس في مباهج الحياة لكي يرتوي منها بظمأ جنوني، إنما شعر بتحرر هائل وبخفة متعاظمة جعلته يصبح فعلاً سلطان زمانه.

في الواقع لم تحقق الحفريات تقدماً يذكر، إلا ان حياة المنقبين عن الذهب تبقى على أية حال مثيرة للإهتمام. مثلاً حدث ان صبياً صغيراً سرق نبيذاً، ومثلَ هذا التصرف يمثل إعتداءً على المصلحة العامة، لذلك فالعقوبة اللازمة لابد ان تحظى بموافقة الجميع. جاءوا بالصبي مقيّد اليدين وقدموه الى رئيس الفرقة الإستكشافية، فقرر موتسارت أماديو هوفنغوت ربطه يوماً وليلة الى جذع شجرة لغرض الردع والتخويف. عندما أقبل قائد المنجم بحبل طويل يطوح به يميناً وشمالاً، مازحاً ببراعة قبل ان يثبته بمسمار في جذع الشجرة، بدأت أطراف الصبي ترتعد هلعاً، وظنّ انه سيشنق حالاً.

حدث أيضاً شيء مشابه، بالرغم من إستحالة تبرير حدوثه، في الوقت الذي وصلت فيه الخيول قادمة من الخارج حاملة إمدادات، أو لتأخذ قسطاً من الإستجمام بضعة أيام. كانت الخيول تجتمع في حضن الوادي مثل فصائل متفرقة، فيبدو إجتماعها وكأنه تمّ بناءً على قانون جماليّ سُنَّ على نحو سرّيّ، قانون يشبه الذكرى التي يخلفها اخضرار المنازل وزرقتها ووردیتها تحت جبل سيلفوت. حين تمضي الخيول الليلَ مربوطةً الى الأشجار ثلاثا ورباعاً قرب أخدود جبلي، وعندما ينطلق أحدٌ ما في الساعة الثالثة سائراً على ضوء القمر ثم يعود في الساعة الرابعة والنصف فجراً، تراها تتطلع الى هذا العابر المبكر فيشعر بنفسه وهو تحت نور الفجر الهلامي كما لو أنه فكرة رُبطت الى عجلة فكر بطيء.

وبسبب السرقات والحوادث الأخرى المخلّة بالأمن فقد تمّ شراء

جميع الكلاب المتوفرة في البلدة لكي تستخدم في الحراسة. جاءت الدورية المتجولة بقطعان الكلاب المربوطة بالحبال مثنى وثلاثاً، دون ان يضعوا في أعناقها حلقات ربط خاصة. أصبح عدد الكلاب دفعة واحدة مماثلاً لعدد البشر الموجودين في هذه الناحية، ويبدو السؤال هنا مشروعاً: أية مجموعة منهما أصبحت صاحبة السلطة في هذه البلدة، وأي رهط له حق الإعتقاد بأنه سيّد المنزل فعلاً وليس مجرد ضيف عابر؟

كانت بينها كلاب صيد ممتازة وكلاب منزلية عضّاضة شريرة تشبه القرود الصغيرة. إنتظمت الكلاب على هيئة طوابير لا يعرف أحد كيف ولأي سبب تشكلت وإنسجمت مع بعضها البعض. أحياناً كانت تهجم مجموعة منها على مجموعة أخرى لأسباب مجهولة أيضاً. كان بعضها نصف جائع والبعض الآخر قد رفض الطعام. وحدث ان تناول كلب أبيض صغير بفكيه يدَ الطاهي عندما دفع اليه بصحن الشوربة فقطع إصبعه.

في الساعة الثالثة والنصف فجراً يبدو كل شيء مضاءً تماماً برغم غياب الشمس، وإذا ما قطع المرء متنَ الجبل فانه يرى الأبقار تضطجع على الحشائش، نصف نائمة، نصف يقظة، بأشكال متحجرة ضخمة كالحة البياض، تخالفت أرجلها وهي تدفع بأجسامها الى الجانب، لا تتطلع في العابرين المارقين، ولا تتعقبهم بعد مرورهم، إنما تثبّت وجوهها الساكنة باتجاه الضياء المنتظر، فتبدو بفكوكها القاضمة التي تطحن بإتساق وهدوء كما لو أنها تبتهل. حين يقطع العابر نصف دائرتها فيبدو وكأنه يقطع دائرة وجوديّة مدغمة غبشاء ضربها النور فصار وجودها متسامياً عليّاً، وإذا ما نظر إليها من علوّ وجدها متباعدة متفرقة مثل مفاتيح كمنجة صامتة مفككة، تتألف من العمود الفقري والسيقان الخلفية والذيول.

هناك على العموم أشياء أخرى متنوعة، مثلاً إنكسرت ساق أحد الرجال، فحُمل من ذراعيه، أو ثمة صراخ يتعالى فجأة «نا...ر»، فيهرع الجميع للإختباء، إذ ان صخرة كبيرة سيتم تفجيرها لإقامة مسلك جبلي.

سقط مطر ناعم غسل بقطراته الأولى أطراف الحشائش وشبّ حريق في حرش قرب الجدول، إلا أنهم تجاهلوا الحريق مأخوذين بالتطورات والمشاهد الجديدة، برغم ان الحرائق تعتبر حتى قبل وقت قصير من الأحداث الجسيمة. لم يكن هناك شاهد آخر سوى شجرة البتولا الفتية التي رُبط الى جذعها خنزير أسود تأرجحت ساقه المربوطة في الهواء. بقي الخنزير وحيداً الى جانب البتولا والنار، إلا أنه جأر فجأة عندما حاول أحد الرجال ان يجذبه من رقبته بحبل، ثم تحدث اليه برفق وهو يحثه على ان يتبعه، لكن الخنزير أخذ يصعّد من صراخه بعدما رأى رجلين يركضان نحوه ويضحكان بسرور. مما لاشكّ فيه إن الخنزير شعر بألم شديد حين أمسك به الرجلان من أذنيه وجذباه الى الأمام، إلا أنه بالرغم من ذلك أبى الإنقياد وثبّت أقدامه الأربعة بعناد، غير أن ألم الأذنين جعله يقفز الى الأمام قفزات قصيرة. هنا هرع رجل آخر من الناحية المقابلة وتناول مجرفة ثم عاجل الخنزير بضربة من جهة النصل على هامة رأسه، فتراخت حركاته وأصبحت مشلولة، ثم سرعان ماخرّت قدماه الأماميتان معاً من أثر الضربة. بعد ذلك تمّ كل شيء بهدوء، وجأر الخنزير للمرّة الأخيرة عندما غاصت السكين في نحره، فأصبح صوته مثل صوت مزمار متنشنج معطوب، تحوّل بعد فترة الى حشرجة تشبه الإحتضار الحزين.

كلّ هذا شهده هومو للمرّة الأولى في حياته.

عندما يأتي المساء يجتمعون كلهم في باحة الدير، حيث جعلوا من احدى الغرف المؤجرة حانة للشرب والقمار. كانت اللحوم التي تنقل

مرتين في الأسبوع عبر الممر الوعر الطويل فاسدة بعض الشيء، وغالباً ما يصاب البعض منهم بالتسمم. ومع ذلك فانهم يأتون كلهم بفوانيسهم الصغيرة بعد حلول المساء، يتعثرون في الدروب الملتوية غير المرئية، إذ أنهم كانوا يعانون من الحزن والعزلة، على جمال ذلك، أكثر بكثير من المعاناة التي تسببها اللحوم الفاسدة. كانوا يغسلون حزنهم وغربتهم بالنبيذ. وبعد ساعة واحدة على الإجتماع تتكثف غيمة من حزن ورقص في حانة الدير ثم تتهادى ابرة الغراموفون بإنسياب ورقّة مثل عربة صفيح مذهبة تنزلق في حقل مسحور غُرس بالنجوم. لم يتحدثوا الى بعضهم البعض، لكنهم كانوا يتكلمون ويتكلمون، فهل هناك مواضيع آخرى غير هذه يمكن ان يتحدث عنها هؤلاء الرجال الذين من بينهم المدرس الخصوصي والمقاول ومفتش السجون السابق ومهندس المناجم والرائد المتقاعد؟

كانوا يتحدثون بالإيماءات. لعلها لغة حيوانات. كانوا يختلفون كثيرا ويتخاصمون بحدة وعصبية عن أمور تافهة لاعلاقة لها بهم، حتى أنهم كانوا يهينون بعضهم بعضاً، لكنك ترى حملة الأسهم وأصحاب الكارتيلات هؤلاء يتجولون معاً هنا وهناك، ثم يتضح بعد حين ان لا أحد كان حاضراً هناك، وأنهم كانوا يفعلون ذلك قتلاً للوقت. لكن حتى لو ان أي أحد منهم لم يعش تلك اللحظات حقيقةً، فأنه، مع ذلك، يبدو فظّاً عنيفاً وساخطاً في تعامله مع الآخرين كما الجلاد.

هذه هي الكتلة الروحية الموحدة نفسها التي تجدها في كلّ مكان: إنها أوربا. إنها البطالة المطلقة اللامحدودة، تماماً مثلما كان العمل مطلقاً في مكان آخر.

الحنين الى المرأة والطفل والراحة اللذيذة. في هذه الأثناء صدح صوت الغرامофون من جديد..

سوف نسافر الى لوج ياروزا، الى لوج، لوج... تعالي الى عريشة حبّي. إنه عطرٌ مساحيق أثيرية. وشاحٌ. ضبابُ منصة مسرح نائية وحياة الجنس الأوربية. إنها النكات البذيئة التي تنفجر على شكل قهقهات والتي تبدأ دائماً بالكلمات نفسها: ذات مرّة سافر يهوديّ في القطار... ذات مرّة سأل أحد الحاضرين عن مقدار ذيول الجرذان التي يحتاجها المرء لبلوغ القمر. في هذه اللحظة أصبح كلّ شيء هادئاً. نهض الرائد ووضع إسطوانة «اوبريت توسكا»، ولمّا صدحت الأغنية قال الرائد بإنكسار وكآبة «ذات مرّة أردتُ الزواجَ من جيرالدين فيرار.» هنا جاء صوتها عبر مكبرات الصوت وملأ الحانة ثم إستقل مصعداً وحلّق به في الفضاء، هذا الصوت النسائي الذي حطّم قلوب الرجال السكارى إعجاباً وإجلالاً. كان ينطلق بكل رعونة وجنون الى الأعلى وعندما لم يجد هدفاً معيناً فانه يهبط ثانية ويفرش ريشاته في الهواء فتنتفخ السراويل بفعل الحركة، حركة الإقلاع والهبوط هذه، بفعل القرار والجواب والإصغاء الآني المتوتر هذا الذي يأتي متزامناً مع رجفة تأخذ بكيانك وتغمرك من جديد. لهو شبق حسيّ عارم.

شعر هومو ان هذه المتعة الموزعة على الجميع في المدن كلها هي متعة عارية، من الصعب تمييزها عن الضربة النغمية الرقيقة، أو حالة الغيرة، أو المتاجرة، أو سباق السيّارات. آها! إنها ليست متعة، أو لذّة، بل مغامرة، كلا، إنها ليست مغامرة، أو الولع بالمغامرة، إنما سكين نازلة من السماء، إنها الملاك الخنّاق، بل جنون الملائكة، أم إنها الحرب؟

هنا سقطت ذبابة من مصائد الذباب الورقية الكثيرة المعلقة في السقف، سقطت أمام هومو واستلقت على ظهرها مصابة بالتسمم وسط تجويف صغير في الشرشف الذي إنسكب عليه ضوء السراج النفطي مخترقاً طيّات المشمّع التي بالكاد يمكن رؤيتها. كان حزنهم ماقبل ربيعيّ، مثل ريح عاتية هبّت بعد هطول المطر. بذلت الذبابة

بضع محاولات ضعيفة متراخية لكي تستقيم، ثم حطّت ذبابة ثانية على المشمّع وأخذت تركض من زاوية الى أخرى، لكي تتأكد من حقيقة الأمر. راقب هومو الذبابة المتسممة بإمعان، لأن الذباب كان بلاءً كبيراً هنا. عندما جاء الموت مددت الذبابة المحتضرة أقدامها الستّ معاً وجعلتها قائمة الى الأعلى الى ان فارقت الحياة في بقعة الضوء الشاحب التي تشبه مقبرة من السكينة لايمكن قياسها مادياً ولا حسياً، إلا أنها موجودة برغم من كل شيء. هنا بدأ أحد ما يروي قصة: «ذات مرّة توصل أحد الرجال الى نتيجة مفادها ان جميع أموال عائلة روتشيلد ليست كافية لقطع تذكرة سفر من الدرجة الثالثة الى القمر.»

همس هومو مع نفسه «إنهم يقتلون الناس ثم يشعرون بوجود الله، يشعرون بوجود الله ومع ذلك يقتلون الناس؟» ثم قذف بسبابته الذبابة الميتة في منتصف وجه الرائد الذي كان جالساً قبالته، فحدث إضطراب ولغط استمرا الى مساء اليوم التالي.

كان هومو قد تعرف آنذاك على جريجيا، التي ربما كان يعرفها الرائد أيضاً. كان اسمها لينا ماريا لينتسي، وهذا الأسم يذكّر بسلفوت وغرونلايت أو مالقا مندانا، التي هي أسماء البلّور الفيروزي والزهور، إلا أنه كان يدعوها «جريجيّا» بياء مشددة وجيم معطشة مثلما تنادي هي بقرتها جريجيا «الكلحاء».

تربعت جريجيا على حافة المرعى بثيابها الكحلية وإيشارب شعرها المنقّط، رافعة بوز حذائها الهولندي المعقوف الى الأعلى، شابكة ذراعيها فوق مئزرها الملّون، فبدا مظهرها لطيفاً مثل فطر ممشوق سام. كانت منشغلة بين الحين والآخر في إصدار الأوامر الى البقرة التي كانت ترعى في متن الوادي. كانت أوامرها تتألف مَن أربع مفردات!Geh ea, و aua و Geh، وذلك يعني تقريباً «تعالي هنا» و «إقتربي هاهنا»، إذا مابتعدت

عنها البقرة قليلاً، أمّا إذا عجز قاموس جريجيا التربوي، فانها تبادر بقرتها حينئذ بكلمات جزعة نابية «فليأخذك الشيطان، أرجعي حالاً، إقتربي هاهنا!» وبصفتها السلطة المسؤولة عن جريجيا، فانها تهبط المرعى مزمجرة، تتدحرج مثل صخرة ثم تتلقف أول قطعة خشب في طريقها لتعاجل بها بقرتها الكلحاء من موضع مناسب للرمي. وبما أن جريجيا كانت تميل دوماً الى الإنحدار نحو الوادي فقد تكرر هذا المشهد بتفاصيله كلها مثل أثقال الرقّاص الحديدية التي لاتنقطع عن التحرك.

ولأن كل شيء بدا لهومو بلا معنى بصورة فردوسيّة، أطلق هومو إسم «جريجيا» على المرأة مزحاً وتحرشاً. إنه لم يعد ينكر ان قلبه سرعان مايخفق بحيوية ونشاط كلما اقترب من هذه المرأة المتربعة بشكل غريب، يخفق قلبه هكذا كما لو أنه ضُخّ فجأة بعطر التنّوب وأريج الهواء المنعش الذي كان يتصاعد من قيعان الغابة المليئة بالدمن والكمآة.

غالباً مايبقى الشعور بالرهبة عالقاً في الإنطباع الذي يتولد أمام الطبيعة، فلا أحد يستطيع ان يتجاهل حقيقة ان الطبيعة ذاتها ليست أقل من مسألة طبيعية، إنها أرضيّة شديدة النتوء وسامّة أيضاً، بيد انها قاسية قبل كلّ شيء، خالية من الرحمة في آن، لاسيما حين يمتنع الإنسان عن الإستسلام أمام جبروتها.

من المحتمل ان هذا الإحساس هو الذي جعله يرتبط بهذه الفلاحة، أو ان دهشته المستمرة من ان هذه الفلاحة شديدة الشبه بالمرأة التي يشتهيها، ساهمت بدورها في إقترابه منها وتودده إليها. بالطبع ان المرء سوف يتعجب حين يلمح سيدة تجلس وحيدة بين الأخشاب وترتشف الشاي.

«معذرة! تفضل، تفضل بالدخول» قالت له بعدما قرع باب بيتها

لأول مرّة. كانت تقف آنذاك أمام الموقد الحديدي تراقب قدراً يغلي، ولأنها لم تستطع الإبتعاد عنه، أشارت الى الضيف بأدب وأحترام ان يستريح على أريكة المطبخ. بعد فترة قصيرة جففت يدها بمئزرها وهي تبتسم ثم ناولتها الى الزائر. كانت يداً جميلة التكوين. إحتكت يداهما عبر ملامسة خشنة مخملية مثل ورق رملي شفّاف أو حجيرات حديقة دقيقة ناعمة. كان وجهها متهكما نوعاً ما، صريح الملامح إذا ما نظر اليه المرء من الجانب. كان فمها قد أثار إنتباهه على نحو خاص. كان مشدوداً متوتراً توتر القوس، لكنه كان أيضاً مزموماً بطريقة وكأن المرأة قد إزدردت ريقها لتضفي على فمها الرقيق مسحة من الخشونة والجفاء، غير ان الخشونة هذه منحتها بدورها شيئاً من الظرافة التي إنسجمت تماماً مع حذائها الذي إنفلتت منه هذه التوليفة البشرية كما لو أنها إنفلتت من جذور وحشية. جاء هومو لمناقشة أعمال تجارية، وعندما غادر لمح الإبتسامة ذاتها ترتسم على وجهها، لاحظ أنها تركت يدها ترتخي في يده فترة أطول من مصافحة الإستقبال. ربما لم تكن لهذه الإحساسات في المدينة التي قدم منها أدنى قيمة أو معنى، إلا أنها هنا، في هذه العزلة الكبيرة، بدت مثل إرتجاج عنيف لايختلف عن إرتجاج شجرة أرادت ان تهزّ أغصانها بطريقة يستحيل معها القول ان ريحاً هابّة أو إنطلاقة طير مباغتة كانت السبب وراء هذا الإهتزاز.

هكذا تحوّل بعد فترة وجيزة الى عاشق فلاحة، فشغله هذا التحوّل وسيطر على ذهنه، لأن هذا الشيء لم يحدث له، إنما حدث معه من الداخل مباشرة. حين قدم مرّة ثانية، جلست جريجيا فوراً الى جانبه على أريكة المطبخ، وعندما وضع يده في حضنها لكي يختبر الى أي مدى يمكن ان تسمح له، هامساً في أذنها بانها أجمل إمرأة في البلدة كلها، لم يبدر من جريجيا سوى ان تركت يده ترتخي بين فخذيها، ثم

وضعت يدها فوقها، وهكذا تمّ الإتفاق، فقبّلها ختماً لهذا الإتفاق، فأخذت تمطّق شفتيها وتمطهما تماماً مثل شفتين ضمآنتين أرتوتا ثم ابتعدتا قليلاً عن جرّة الماء بعد ان تشبثتا بها. فزع هومو في البدء من هذا التصرف الذي بدا له مبتذلاً نوعاً ما، لكنه لم يغتظ أو يتبرم عندما صدّت محاولته الثانية. لم يكن يعرف السبب الذي جعلها تفعل ذلك، لأنه ليس على علم بالعادات والمخاطر في هذه الناحية، لذلك فقد عزّى نفسه بجزع حالماً بلقاء آخر. قالت له جريجيا «سيكون ذلك في عنبر القش» ، ثم هتفت به عندما وقف على عتبة الباب ليودعها «الى اللقاء العاجل!» ورشقته بإبتسامة جذلة.

وهو في طريقه الى المنزل، شعر هومو بسعادة غامرة، كما لو ان شراباً ساخناً بدأ يفعل مفعوله به، إذ ان الفكرة وحدها، بأنه سينسل الى حضيرة القشّ ويدفع البوابة الخشبية الثقيلة ثم يغلقها وراءه، فتنمو العتمة عند كلّ درجة يطويها مصراع الباب على رزته، الى ان يتمكنا من الوقوف على أرض بنيّة قائمة العتمة، جعلته مسروراً فرحاً مثلما يفرح صبيّ بدهائه الطفولي. إستعاد في مخيلته القبلات، فشعر بها تتمطق على شفتيه كما لو ان أحداً ما وضع على رأسه إطاراً سحريّاً.

حضّر هومو نفسه للقاء القادم، وفكّر مرّة أخرى في الطريقة التي يتناول بها الفلاحون طعامهم: إنهم يلوكونه ببطء، ولايمضغون اللقمة إلا بعد ان يمطونها ويمصونها. إنهم يفعلون ذلك بهيبة واجلال كبيرين. هكذا كانوا يرقصون أيضاً، خطوة إثر خطوة، وربما كانوا يفعلون كلّ شيء آخر بطريقة مغايرة لما يفعله الناس عادة. تصلّبت ساقاه من فرط الإنفعال عندما تخيّل ذلك، وشعر بقدميه وكأنهما إنغرزتا في الطين. كانت النساء يطبقن أجفانهن ويقلصن وجوههن على هيئة أقنعة واقية حتى يمنعن التطلع والفضول. إن النساء هنا لايزفرن عادةً أو يتأوهن، بل يبقين دائماً صامتات مثل

الجعران التي تتخذ وضعاً تمويهياً فتجعل نفسها ميتة، هكذا يركزن جلّ إهتمامهن على الشيء الذي سيحدث ذات يوم..

وهذا ماحدث بالضبط، إذ نكشت جريجيا فضلات التبن المتبقية من الشتاء الماضي بحذائها ذي المشرط الحاد وكومتها في مكان واحد ثم إبتسمت للمرة الأخيرة عندما إنحنت لتحلّ شرائط ثوبها، وقد فعلت ذلك كأي سيدة محترمة تحاول ان تسوّي مطّاط سراويلها الداخلية. بدا كلّ شيء بسيطاً للغاية، ولأنه كذلك فقد بدا، في الوقت ذاته، مسحوراً مثلما هي الخيول والأبقار والخنزير المذبوح.

إذا ما سمعا وقع خطوات ثقيلة تهبط الطريق الحجري مقتربة من الألواح التي كانا يختبئان خلفها، تلك الخطوات التي تحدث رنيناً عالياً، ترى هومو يفور دمه ويصعد الى عنقه بفعل الرعب، بينما تستطيع جريجيا دوماً ان تخمّن إتجاه الخطوات عند الخطوة الثالثة، فتتكهن فيما إذا كانت مقبلة نحوهما أم ذاهبة في إتجاه آخر.

كانت تطلق عبارات عذبة ساحرة، فتقول أحياناً «الخشيم» بدلَ الأنف، و «مشط الفخذ» بدلَ الساق، وتسمّي المئزر «وزرة». قالت له بعينين مغمضتين «المسألة أصبحت متوقعة» ، نطقت ذلك بتعجب، «لقد إضطجعت في الفراش قليلاً. » وعندما هددها بأنه سوف ينقطع عن زيارتها ضحكت وأجابته «لكنني سأطرق بابك بنفسي! » لم يعرف حينها فيما إذا كان ذلك قد أرعبه أم أسعده. عندما لاحظت حيرته سألته ببرود: «هل ندمت؟ هل ندمت على ذلك كثيراً؟ »

كانت هذه الكلمات تشبه رسومات مئزرها ومنديل شعرها والأشرطة الملوّنة التي كانت تلف بها جواربها. بدت هذه الكلمات متلائمة الى حد ما مع الحاضر بسبب مسافة الترحال البعيدة التي قطعها الحاضر، لكنها كانت مثل ضيوف غامضين. كان فمها مليئاً

بهذه العبارات، غير انه حين يلثمه لايعلم ساعتها فيما إذا كان يحبّ هذه المرأة حقّاً، أم ان معجزة إلهية هبطت عليه وان جريجيا نفسها لم تكن سوى العلامة الأولى لهذه الرسالة السماوية التي أرادت ان توثق علاقته بحبيبته الى الأبد.

قالت له ذات يوم مامعناه «إنك تفكر بطريقة مختلفة. إنني أرى ذلك واضحاً على قسمات وجهك!» ولمّا حاول التهرب من هذه التهمة، بادرته بالقول ah, das is an extrige Sküss فسألها عن معنى ذلك، إلا أنها لم تبد أيّ رغبة في مواصلة الحديث، فأخذ يمعن الفكر ويستنطقها شيئاً فشيئاً حتى توصّل الى ان صبياناً فرنسيين كانوا يقيمون في هذه البلدة قبل مائتي عام، فخلفوا وراءهم هذه العبارة excuse آنذاك، لكنها قد تنطوي على معنى آخر شديد الغرابة.

تتوقف هذه الأشياء كلها على مدى إحساس المرء أو عدم إحساسه، فإذا كانت للمرء مبادىء، فأنه سيعتبر المسألة هذه مجرد مزحة جمالية يستطيع الإحتفاظ بها لنفسه، أمّا إذا لم تكن له قيم ومبادىء، أو أنه تحرر منها مثلما هو الحال مع هومو عندما قرر السفر الى هنا، فأن من الممكن ان تتملكه هذه الظواهر الغريبة وتسلب منه إرادته. لم تمنحه الظواهر هذه أنا جديدة تغمرها السعادة، أنا متشبثة بعروق الأرض، إنما نفذت اليه عبر فتوق ورقع جسده الجميلة بتنافر وفوضى. شعر هومو بأنه سوف يموت قريباً، لكنه لم يعرف متى وكيف سيتحقق ذلك. لقد أصبحت حياته عديمة الفعالية، واهنةً مثل فراشة يدبّ فيها الضعف والوهن كلما إزدادت قرباً من الخريف. كان يتحدث أحياناً الى جريجيا عن همومه هذه، وهي، من ناحيتها، كانت تظهر طريقة خاصة في تسقّط الأخبار وإستجلاء معانيها. تفعل ذلك بكل احترام وبلا أنانية، كما لو أنها تستطلع أمراً يستوجب ثقتها

وحدها.

بدا لها من الطبيعي ان يحب هومو أناساً آخرين يقيمون خلف جبالها أكثر مما كان يحبها، بل أنه يحبهم بكل جوارحه. إنه لم يشعر قط ان حبّه لهم بدأ يضعف أو يتضاءل، بل شعر به يترسخ ويتجدد على الدوام. ان حبّه لم يصب يوماً بالشحوب، إلا أنه كان يفقد باستمرار قدراً معيّناً من حيويته كلما إزدادت الوانه عمقاً، هذه الحيوية التي من شأنها في الحقيقة ان توّجه نوازعه، أو تثنيه عن الإقدام على فعل ما. أصبح هذا الحبّ خالياً بشكل مدهش من أي ثقل، متحرراً من كلّ ماهو أرضيّ، لايعرفه إلا من أدرك نهايته شاخصةً أمامه ولم يعد ينتظر الآن سوى الموت. كان هومو قبل ذلك سليماً معافى، بُعثت في روحه الإستقامة مثلما تُبعث في جسد مشلول فيرمي عكازتيه ويمشي طليقاً.

تضخّم هذا الإحساس في وقت الحصاد. كانت الحشائش قد قصّت للتو، تنتظر ربطها ونقلها من الحقول الجبلية. وقف هومو يتطلع من مرتفع يشبه خفقة أرجوحة إنفلتت بعيداً في الفضاء. لمح الفتاة في الحقل بمفردها تسوّي الحشائش على هيئة باقة كبيرة. بدت له مثل لعبة ملوّنة تحت ناقوس السماء الزجاجي. كانت تجثو على ركبتيها لتجمع الحشائش بذراعيها وتسحبها الى حضنها، ثم تستلقي على بطنها بشكل حسيّ لتضم الباقة إليها، وتلقي بعد ذلك بجسدها الى الجانب وتمدّ ذراعها باقصى ماتستطيع ثم تزحف نحو حمولتها بركبة واحدة ومن بعد ذلك بركبتين. وجد هذا المشهد شبيهاً بما تفعله الخنفساء. أخيراً دفعت بجسمها كلّه تحت الباقة المربوطة بحبل ورفعتها بتأن. كانت الباقة أكبر بكثير من هذا الكائن الرقيق الملوّن الذي حملها. أم انها ليست جريجيا؟

إذا ما قطع أكوام الحشائش التي وضعتها الفلاحات بإنتظام على السفح، باحثاً عن جريجيا، ورأى الفلاحات يجلسن، فانه لم يصدق مايشاهده، إذ كانت النساء يستلقين على تلال الحشائش وكأنهن تماثيل مايكل أنجلو في صومعة المدجي الفلورنسية. كانت رؤوسهن مسندة الى أذرعهن وأجسادهن مسترخية كما لو كنّ يستسلمن الى تيّار متدفق. حالما تحدثن الى هومو أخذن يبصقن في الوقت ذاته، وقد فعلن ذلك بإفتعال واضح، فكنّ ينتفن ضفيرة من الحشائش بثلاثة أصابع ويبصقن في الفجوة التي يخلفها النتف ويحشرن الضفيرة في الفجوة من جديد. لاشكّ أن هذا التصرف يبعث على السخرية، لكن عندما ينتمي المرء الى هذه العائلة الكبيرة، مثلما هو حال هومو الذي يفتش الآن عن جريجيا، فأنه سيصاب فجأة بالرعب من هذا التكريم الفظ. غير ان جريجيا نادراً ماتكون هنا، وإنْ عثر عليها جالسة في حقل البطاطا، فأنها تبادره بالضحك. كان يعلم أنها لاترتدي غير ثوبين، لذلك فأن التراب الجاف ينزلق من أصابعها النحيلة العجفاء ويلامس جسدها. بيد ان هذا الإستعراض لم يعد غريباً بالنسبة له، إذ ان أعماقه قد تآلفت معه بثقة غريبة، تماماً مثلما يلامس التراب الجسد. ربما إنه لم يلتق بها في هذا الحقل، وبالتحديد في موسم الحصاد هذا، لأن الأشياء هنا أصبحت كلّها شديدة الفوضى.

إمتلأت العنابر بالتبن وإنهمر الضوء الفضيّ عبر الدعائم الخشبية، فشعّت الحشائش نوراً وتمدد شريط ذهبيّ من النور أسفل الرتاج وفاحت رائحة التبن متخثرة حامضة مثل شراب الزنوج المصنوع من اللعاب والفاكهة. على المرء ان يتذكر أنه هنا يعيش بين بشر بدائيين، فتتولد في نفسه حينئذ نشوة رائعة تحت سخونة هذا المكان المليء بالعلف المتخمّر.

إن التبن والقشّ يستطيعان تحمّل الحالات جميعها ويمكن للمرء ان يغوص فيهما حدّ بطّة الساق وهو يقف مختلاً مرتبكاً، أو يستلقي على التبن كما لو أنه يستلقي في راحة الله، بإمكانه أيضاً ان يتمرغ في كف الله مثل جرو أو خنزير. هنا يضطجع المرء بشكل منحرف، أو عموديّ الى حد ما، مثل قديّس يعرج الى السماء معتلياً غيمة خضراء.

كانت هذه أيام أعراس وصعود الى السماء.

أوضحت له جريجيا ذات مرّة بان «الأمر لم يعد ممكناً!»

عجزَ هومو عن إستدراجها لكي تفسر قولها، فالقسوة التي زمّت بها فمها والتقطيبة العمودية التي نشأت بين عينيها اللتين تتقلصان عادة تأملاً وإجتهاداً كلما سألها عن المخبأ أو العنبر الذي سيتم فيه اللقاء الجميل القادم، بدأتا، الآن، تتكهنان بحلول طقس في غاية السوء، سيباغتهما لامحالة على عجل.

هل مضغتهم ألسنة الناس؟

لكن النسوة العجائز اللوائي لاحظن شيئاً معيّناً، كنّ يبتسمن طوال الوقت كما لو أنهن يتابعن مشهداً مسلياً. بات من الصعب إنتزاع أي إعتراف من جريجيا. قامت تختلق الأعذار وأصبح من النادر الإلتقاء بها، لكنها أصبحت حذرة جداً في اختيار كلماتها مثل فلاح سيء الظن.

ذات مرّة لمح هومو علامة شريرة، إذ انحلّت كمّاشات جواربه، فاتكأ على سياج خشبيّ ليثبتها ثانية، هنا بادرته فلاحة عابرة بنبرة وديّة «دع سراويلك منزوعة، فأن الليل سيحل قريباً!»

حدث هذا على مقربة من دار جريجيا. بعدما روى لها ما سمعه، صنعت جريجيا وجهاً متغطرساً وقالت «الناس يثرثرون، لكنّ الجدول يجب ان يتابع مجراه!» ثم بلعت ريقها وابتعدت بافكارها الى مكان

ناء. فجأة تذكّر هومو إمرأة فلاحة هجينة المظهر لها جمجمة مكسيكية كانت تقبع دوماً عند دكّة دارها، ناثرة شعرها الأكرت على كتفيها، يحيط بها ثلاثة أطفال أصحّاء عريضو الأفواه. كان هومو يمر من أمامها كلما التقى بجريجيا، دون ان يأخذ حذره. إنها الفلاحة الوحيدة التي لم يتعرف عليها بعد، والغريب في الأمر ان هومو لم يسأل عنها قطّ، بالرغم من ان مظهرها لاشكّ قد أثار إنتباهه مرّة. بات من المؤكد ان صحة أطفالها الموفورة وأفواههم العريضة تعادلت تماماً مع وجهها العجيب المتبرم، فأزالت العلامات الفارقة جميعها، وأصبح من الصعب ان يثير حضورها الإنتباه. بعدما إقترب من هذه المرأة، بات مقتنعاً انها، هي وحدها، مصدر الريبة. حين سأل جريجيا عن هذه المرأة، هزّت كتفها بعصبية وإزدراء ثم نفخت بتبرم قائلة «إنها لا تفقه ماتقول. كلمة هنا والثانية فوق الجبل» ، وجعلت يدها ترافق كلماتها ثم هزّت يدها أمام جبينها بحركة خاطفة كما لو أنها أرادت أن تُبطل فوراً وأبداً شهادة هذه الشخصية الغريبة القابعة عند دكّة دارها.

ولأن جريجيا لم تعد تقتنع بالذهاب الى عنابر التبن المنتشرة في أرجاء القرية، إقترح عليها ان تطلع معه الى قمم الجبال، فامتنعت في البدء، ثم وافقت فيما بعد مستسلمة. أجابته بنبرة بدت له ثنائية المعنى «حسناً إنْ كان لابد من الصعود!»

كان صباحاً رائعاً هذا الذي غمر بنوره كلّ شيء. كان بحر الغيوم والبشر يقع بعيداً هناك. كانت جريجيا تتجنب المرور بمحاذاة أكواخ الفلاحين، وبدت في الحقول المكشوفة خائفة من النظرات المتفحصة، هذه المرأة التي كانت تظهر قدراً مذهلاً من التحدي واللامبالاة في جميع المراحل الإستراتيجية التي مرّ بها غرامها. أصيب هومو بالجزع. تذكّر أنهما مرّا تواً أمام منجم قديم، كان رجاله قد تركوا التنقيب فيه

قبل عهد قريب. قاد جريجيا الى الداخل. عندما التفتَ للمرة الأخيرة، أبصر قمّة الجبل المغطاة بالثلوج، حيث لمعت سنابل حقل صغير مشدودة الى بعضها أسفل القمة، ذهبية برّاقة تحت أشعة الشمس، وفوق ذلك كلّه إستقرت خيمة السماء زرقاءَ بيضاء. أطلقت جريجيا تعليقاً كأنه تلميح، وعندما لاحظت إتجاه نظراته قالت برقّة «دعنا نترك زرقة السماء كما هي، لكي تبقى جميلة الى الأبد.»

نسي ان يسألها ماذا عنت بذلك، لأنهما كانا منشغلين في جسّ وتفحّص كثافة الظلام الذي كان يزداد عمقاً كلما توغلا في داخل المنجم. سبقته جريجيا في الجسّ والتفحص، وبعد لحظة إتسع المنجم كاشفاً عن ردهة صغيرة، فتوقفا ثم تعانقا. بدت الأرض تحت أقدامهما جافة صلبة، فتمددا عليها، دون ان يشعر هومو على الأقل بالحس الحضاري، كأنْ يشعل عود ثقّاب مثلاً ليتفحص فيه المكان. إنزلقت جريجيا من بين يديه مرّة ثانية مثل تراب رخو جاف. شعر بها متصلبة في عمق الظلام متوترة من فرط اللذة. أخيراً إضطجعا ونظرا صامتين الى المربع الصغير الذي كان يشعّ تحت بياض النهار. إستعاد هومو عملية وصوله الى هنا، رأى نفسه يلتقي بجريجيا خلف القرية، فيتسلقان الجبل، ثم يطوفان حوله قبل ان يتسلقا مرّة ثانية، بعد ذلك أخذ يتأمل جواربها الزرقاء المعقودة الى الشرائط البرتقالية التي تصل الى الركبة، تأمل مشيتها الممشوقة المتمايلة وحذاءها المضحك الظريف وتأملها عندما وقفت في مدخل المنجم. مدّ بصره الى الريف البعيد، ومن ثم الى الحقل الذهبي، ودفعة واحدة لمح بشكل خاطف صورة زوجها بالضبط عند فوهة المغارة الغارقة في وهج النهار.

لم يكن هومو قد فكّر يوماً في هذا الرجل الذي كان يشتغل أيضاً في أعمال التنقيب. والآن فانه رأى بوضوح للمرّة الأولى قسمات هذا

اللص الوحشي وعينيه الماكرتين. فجأة تذكّر تلك اللحظة التي سمعه فيها يتكلم. حدث ذلك بعد عملية توّغل شاقة في حفرة منجم قديم لم يجرؤ أحد على القيام بها آنذاك، فكانت كلماته «إنني أقذف بنفسي من ورطة الى أخرى، وأصبح رجوعي ميئوساً منه!»

سارع هومو الى إشهار مسدسه، لكن زوج لينا ماريا لينتسي إختفى في اللحظة ذاتها، فاطبق الظلام كثيفاً كالجدار. أخذ هومو يتحسس ثغرة الخروج، بينما كانت جريجيا تتعلق بأطراف ثيابه. إقتنع على الفور بان هذه الصخرة التي تدحرجت كانت أثقل بكثير من قدرته على زحزحتها. أدرك أيضاً السبب الذي جعل زوجها يمهلهما وقتاً طويلاً، إذ أنه نفسه كان بحاجة إليه لتنفيذ خطته وإحضار جذع شجرة لكي يستخدمه كآلة رافعة.

جثت جريجيا على ركبتيها أمام الحجر تنحب وتتوسل شاكيةً، لكن ذلك كان بشعاً وبلا معنى. أقسمت أنها لم تقدم على عمل منكر وأنها لن تقدم بعد اليوم على إثم أبداً، ثم صرخت مستغيثة مثل خنزير صغير وهرعت نحو الصخرة جافلة كالفرس. شعر هومو أخيراً بان هذا كلّه كان قدراً طبيعياً، لكنه، وهو المثقف المتعلّم، لم يكن قد فعل شيئاً ضد نزعة عدم التصديق التي تملكته منذ البداية، بان قدراً محتماً كهذا يمكن ان يقع. إتكأ على الجدار واضعاً يديه في جيبي سرواله، منصتاً الى توسلات جريجيا. أخيراً أدرك مصيره المحتوم. شعر به الآن مثل حلم يهبط عليه منذ أيام وأسابيع وشهور، بدا له ذلك مثل بداية نوم قد يستغرق دهراً طويلاً. مدّ ذراعه نحو جريجيا ليضمها إليه ثم رقد الى جانبها ينتظر حدوث شيء ما.

زماناً كان يعتقد ان الحبّ داخل سجن لاخلاص منه سيكون بالضرورة مرهفاً قاطعاً مثل عضة الأسنان، إلا أنه نسى الآن حتى

التفكير في جريجيا. لقد أصبحت بعيدة عنه نائية، أو هو الذي أصبح بعيداً نائياً عنها، بالرغم من أنه مازال يتحسس كتفها، بدت له حياته كلّها نائية عنه. ربما كان يشعر بوجودها، إلا أنه لم يستطع تحسس هذا الوجود أو الإمساك به. توقفا عن الحراك ساعات طويلة. مضت عليهما أيام وليال وخلفت وراءها جوعاً وعطشاً، فاصبحا ضعيفين هزيلين صامتين مثل مسافة طريق مثيرة. كانا يغطان في نوم عميق كالبحر ويستيقظان كالجزر الصغيرة.

ذات مرّة إستيقظ هومو صاحياً منتبهاً: كانت جريجيا قد غادرت. هاتف ما أبلغه انها فعلت ذلك توّاً. إبتسمَ. غادرت دون ان تقول شيئاً عن ثغرة الخلاص. تخلّت عنه كدليل إثبات تقدمه الى زوجها...!

أسند ظهره الى الجدار وأخذ يتطلع في الظلام. إكتشف شعاعاً خافتاً فتقدم منه زاحفاً بعمق في حفرة المنجم. أبصر شقّاً ضيّقاً يمكن أن يقوده الى الخارج. إذا كانت جريجيا رقيقة نحيفة، فأنه أيضاً نحيف رقيق الجسد، وإذا ما بذل قصارى جهده فربما تمكن من النجاة، فهذه الثغرة هي طريق الخلاص. إلا ان هومو كان خائر القوى، أضعف من ان يكون قادراً على العودة الى الحياة، ربما لم يكن راغباً في العودة، أو انه لم يستطع الخلاص حقّاً.

بعدما تأكد موتسارت أماديو هوفنغوت من فشل المساعي والمحاولات التي بذلت في البحث والتنقيب، أصدر في الساعة ذاتها أمراً بإيقاف جميع الأعمال.

البرتغالية

كانوا يُلقبون في بعض الوثائق «ديلا كاتينا» ويطلق عليهم في غيرها «السادة فون كيتن»، قدموا من الشمال أصلاً واستوطنوا مشارف الجنوب، وهم يستخدمون إنتماءهم الجرماني أو الولشي حسبما تقتضي مصلحتهم، لكنهم في الواقع لاينتمون إلا لأنفسهم. كانت قلعتهم قائمة على جانب طريق «برنر» المؤدي الى إيطاليا، بين «بركسن» و«ترينت»، منتصبةً على سطح مستقيم منفلت في الفضاء. وعلى مسافة خمسمائة قدم أسفل القلعة يهدرُ نهر صغير صاخب لدرجة ان المرء، إذا ما أطل برأسه من النافذة، لايكاد يسمع ناقوس كنيسة يقرع في المكان ذاته. ليس هناك أي صوت قادر على الدخول الى قصر الكيتيين مخترقاً حصيرة الصخب الوحشي التي عُلّقت في أسفل القلعة، إلا ان العين المحصنة عادة ضد الهدير تستطيع ان تحيط بالمشهد دون إعتبار لهذه الموانع الدفاعية، وتترنح إندهاشاً في دائرته العميقة.

يعتبر السادة الكيتيون من ذوي الفطنة واليقظة، لاتفوتهم فرصة لهم فيها مصلحة حتى لو كانت في الأرجاء البعيدة. إنهم أيضاً أشرار مثل سكين ماضية تقطع فوراً في العمق، لا تحمر وجوههم في حالات الغضب ولاتتورد عندما يفرحون، بل إنهم يصبحون معتمين عند الغضب ويشعّون في الفرح كالذهب، هكذا هم نادرون وجميلون. ولهم أيضاً صفة أخرى ميزتهم طوال الأعوام والقرون وهي ان خيوطاً

بيضاء تنمو مبكرة في شعر رؤوسهم ولحاهم البنيّة، كما انهم، جميعاً، يغادرون الحياة قبل ان يصلوا الى سنّ الستين. ويلاحظ عليهم كذلك ان القوة الخارقة التي يظهرونها أحياناً لاتكمن في أجسامهم المربوعة المعتدلة البناء، بل تنطلق من عيونهم وجباههم، لكن ذلك كلّه مجرد كلام يردده الخدم والجيران المذعورون. يحمل الكيتيون معهم كل مايقدون على حمله وينجزون أعمالهم على نحو مهذب أو عنيف أو ماكر، لكنهم يفعلون ذلك بصبر وهدوء، فتمضي حياتهم حثيثة بلا تعجّل، أو تنتهي فجأة دون ان يخلّفوا ورائهم شيئاً طالما انهم حققوا كل ماكانوا يصبون إليه.

كان من تقاليد عرق الكيتيين هذا انهم لايتصاهرون مع النبلاء القاطنين على مقربة من ديارهم، إنما يأتون بنسائهم من أماكن بعيدة، نساء ثريات، حتى لاتتعرض عداواتهم واحلافهم الى التضييق والضغط.

عندما اقترن السيد فون كيتن قبل أثني عشر عاماً بالبرتغالية الجميلة كان في الثلاثين من عمره وقد تمّ حفل الزفاف في الغربة.

شعرت المرأة الفتية بآلام المخاض حين عبر الركب المدوّي للأتباع والمرافقين والخدم والخيول حدود الكيتيين. مضى الزمن مثل رحلة عرس دامت عاماً كاملاً، إذ ان الكيتيين كانوا حقّاً فرساناً رائعين فيما يتعلق بالنساء، إلا انهم لايظهرون ذلك إلا مرّة واحدة في حياتهم، أي في ليلة زفافهم. كانت نساؤهم جميلات، لأنهم يريدون إبناءً جميلين، ولم يكن لهم ان يفعلوا وهم في بلاد الغربة شيئاً آخر غير هذا، ليحصلوا على نساء جميلات، لأنهم هناك أقل منزلة مما هم عليه في وطنهم. إنهم في الواقع لايعرفون بالضبط فيما إذا قد أظهروا أنفسهم على حقيقتها في هذا العام وحده أم في الأعوام كلّها.

إستقبل القادمين رسولٌ بنبأ هام. كانت الحلل الملوّنة وبيارق الموكب المريّشة لم تزل ترفرف مثل فراشة كبيرة، لكن السيد فون كيتن تغيّر في الحال. إقترب بجواده من زوجته بعد ان سبقها ثم أخذ يسير بمحاذاتها بهدوء، كما لو ان العجلة ليست من طبعه، غير ان وجهه أصبح غريباً كجدار من الغيم. عندما لاحت القلعة فجأة بعد إنعطافة الطريق، حيث لم يبق على الوصول سوى ربع ساعة، قطع كيتن صمته بعد جهد عسير. طلب من زوجته ان تعود أدراجها وترحل الى أهلها. توقف المركب. توسلت البرتغالية به وأصرّت على مواصلة السير، فالعودة ممكنة أيضاً طالما سمع المرء الأسباب.

كان أساقفة ترينت يتمتعون بسلطة ونفوذ واسعين، حتى ان محاكم الرايخ كانت تنطق بألسنتهم. كان الكيتيون قد وقعوا منذ عهد بعيد في خصام مع الأساقفة على قطعة أرض، وسرعان ماتحوّل الخصام الى قضية قانونية، وبعد فترة وجيزة إتخذ الأمر طابع النزاعات الدامية، فكان على الكيتيين في كلّ مرّة ان يستسلموا أمام قدرة الخصم وتفوقه. لكن النظر المتبصر الذي لاتفوته الفرصة المناسبة ظل ينتظر بلا طائل الفوزَ بالغنيمة. لقد أورث الأب المهمة الى الأبن، فبقي الكبرياء سارياً في عروق القبيلة لم يصب بالضعف يوماً. كان السيد فون كيتن هو الذي عرضت الغنيمةُ نفسها عليه، فأصيب بالرعب لأنه كاد يقصّر إزاءها، إذ أعلن فريق مؤثر من النبلاء العصيان على سلطة الأسقف، واتُخذ قرار بمهاجمته وأسره، فكان على السيد فون كيتن ان يلعب دور الورقة الرابحة. لكن كيتن الغائب منذ عام وليلة لم يكن مطلعاً على وضع القوة الأسقفية، غير انه، من ناحية ثانية، كان يعلم ان هذا الوضع الجديد سيقود الى إختبارات وتجارب قاسية تستغرق

أعواماً مجهولة النتائج، كما ان المرء لايستطيع الإعتماد على أي كان حتى تحسم الأمور، هذا إذا لم تتم الإغارة على ترينت وإحتلاها على الفور.

حقد كيتن على زوجته، لأنها كادت تفوّت عليه الفرصة. إنها تعجبه، هذا السيد الذي يسير دائماً على مسافة عنق حصان بمحاذاتها، إذ انها مازالت تبدو له غامضة جداً مثل عقود اللؤلؤ الكثيرة على صدرها والتي يمكن ان يهرسها المرء لو انه قبض عليها بيد معروقة مجوفة لكي يزنها، هكذا فكّر وهو يسير الى جانبها، إلا ان اللآلىء بدت ثابتة في موضعها على نحو لايصدق.

طردَ النبأ الجديد هذا السحر مثلما تطرد الأيام المشبعة بالشمس والصبيانية العري أحلامَ الأشباح الشتائية. هكذا ستمضي الأعوام المسروجة كالخيول والتي سيختفي فيها الطفل والمرأة بشكل عجيب.

أثناء ذلك وصلت الخيول الى أطراف الجدار الذي قامت عليه القلعة. ومرّة ثانية أصرّت البرتغالية على البقاء بعدما سمعت كلّ شيء. كان القصر ينتصب على الجبل عنيفاً متمرداً، وعلى وجه الصخور نبتت بضع شجيرات مائلة تشبه الشَّعر المتفرق. كانت الجبال المغطاة بالغابات ترتفع على نحو يستحيل معه وصفها لشخص لايعرف سوى موج البحر. كان الهواء مشبعاً بالتوابل التي أصبحت شديدة البرودة. بدا كلّ شيء هنا كما لو ان المرء يتهادى في قدر طهي محطّم أتخذ لوناً أخضر غريباً. وفي الغابة ثمة وعول ودببة وخنازير وذئاب وربما وحيد القرن أيضاً، وبعيداً في الأفق تسكن الجديان الجبلية والنسور، فضلاً عن ان المنحدرات العمقة تمنح حتى التنيّن مكاناً للعيش. كانت الغابة مترامية الأطراف، يستغرق قطعها أسابيع طويلة، لاشيء في أرضها سوى آثار الحيوانات الوحشية، وهناك، حيث تخيّم

الجبال على الغابة، تبدأ مملكة الأشباح التي يعيش فيها الجنّ مع العواصف والغيوم. لم يحدث قط ان إخترق رجل مسيحي طريق الغابة هذه، وحتى لو فعل ذلك إعتداداً وتبجحاً، فان العاقبة ستكون سيئة للغاية، تتحدث عنها الفتيات في الغرف الشتوية الموصدة وبأصوات خفيضة، بينما ينصت الأتباع والخدم بصمت وزهو وبأكتاف مرتفعة الى الأعلى، إذ ان حياة الرجال خطرة دائماً ولابد ان يقدم أحد منهم على مغامرة كهذه.

من بين جميع الأشياء التي سمعت بها البرتغالية وبدت لها شديدة الغرابة كانت القضية التالية: بما ان من المستحيل الإمساك بقوس القزح، فمن المستحيل أيضاً ان يبصر المرء شيئاً معيّناً عبر الجدران الحجرية العالية، حيث ان خلفها تقع دائماً حيطان جديدة، بينها منحنيات مقعّرة مشدودة بتوتر مثل ملاءات هائلة مليئة بالحجر والنجوم الكبيرة كالمنازل، حتى ان أصغر صخرة كانت بقدر رأس الأنسان. كان عالماً، إلا انه في الحقيقة ليس بعالم. كثيراً ما كانت تتخيل في أحلامها هذا البلد الذي قدم منه الزوج الذي تحبه حسب طبيعة الزوج نفسه وكذلك طبيعة الزوج حسب أحاديثه عن بلده. كانت تتوقع بلداً غنيّاً بالمفاجآت مثل وتر القوس المشدود، تتوقع بلداً تعبهُ يشبهُ تعبَ البحر الطاووسيّ الزرقة، لكنها بعد ان إطلعت على السرّ وجدت البلد أكثر بشاعة مما يتوقع المرء، فأتتها الرغبة في الهرب. كانت القلعة مثل قنان الدجاج المتراصة. حجر كُوّم فوق صخرة. حيطان متأرجحة نما فيها العفن. أخشاب متآكلة أو جذوع أشجار غليظة رطبة. معدات فلاّحين وآلات حرب. سلاسل للزرائب وعربات من الخشب. لكنها طالما وصلت الى هنا فانها أصبحت تنتمي الى هؤلاء الناس، وربما لم يكن هذا الذي رأته بشعاً الى هذا الحدّ، بل

جميلاً مثلما هي طباع الرجال هنا، والتي عليها ان تألفها في بادئ الأمر.

عندما لمح السيد فون كيتن زوجته وهي تطلع الجبل ممتطية جوادها لم يقدم على إيقافها، ولم يشكرها على فعلها، لكن كان هناك شيء غريب لم يستطع قهر إرادته وكذلك لم يجعله طائعاً مستسلماً، إنما أغراهُ فصار يتعقب زوجته بجواده مثل روح مسكينة ضائعة.

وبعد يومين إعتلى صهوة جواده من جديد.

وبعد أحد عشر عاماً فعلَ الشيء ذاته.

كان الهجوم المباغت ضد «تريت» مرتجلاً تماماً، ففشل فشلاً ذريعاً وكلّفَ على الفور الفرسانَ النبلاء ثلث أتباعهم وأكثر من نصف جرأتهم. أثناء الإنسحاب جُرح السيد فون كيتن، لكنه لم يعد الى المنزل، بل ظل قابعاً يومين كاملين في كوخ فلاّح، .ثم غار مرّة أخرى على القصور، فأيقظ بذلك روح المقاومة من جديد. كان قدومه من الخارج، المتأخر على الإعداد والتعبئة للعملية، جعله بعد الهزيمة معلقاً متأرجحاً مثل كلب في أذن ثور. أوضح للنبلاء المخاطر التي يمكن ان تنشأ لو ان القوات الأسقفية شنّت هجوماً معاكساً ضدهم قبل ان تنتظم صفوفهم، ثم أخذ يحرّض المترددين والمتقاعسين والبخلاء المقترين وأبتز منهم الأموال، فجاء بتعزيزات إضافية من الأسلحة والمعدات الحربية الأخرى وفي الأخير أنتخب قائداً عاماً لحرب النبلاء.

كانت جراحه تنزف عادة نزفاً حاداً في البدء، يضطره الى تغيير الضمادات مرتين في اليوم الواحد. عندما يعتلي ظهر جوادة، قاذفاً بكلماته يميناً وشمالاً، ثم يمضي يوماً واحداً في الأسبوع بعيداً عن الميدان، لايعلم حينها فيما إذا كان يفكر في البرتغالية الساحرة التي لابد ان تكون خائفة الآن.

وصل إليها بعد خمسة أيام من إشاعة نبأ إصابته وأمضى معها يوماً واحداً. كانت تتطلع إليه بدقة، دون أن تسأله شيئاً، تماماً مثلما يتعقب المرء طيران سهم ليتأكد فيما إذا كان سيصيب هدفه.

قام بتعبئة رجاله حتى آخر صبيّ يمكن الوصول إليه وجعل القلعة في حالة دفاع ثم قام ينهي ويأمر، فتحوّل اليوم كلّه الى صياح خدم واتباع وصهيل خيل ورفع دعائم واعمدة خشبية وصليل حديد وارتطام أحجار. وفي الليل اعتلى صهوة جواده من جديد. كان رقيقاً لطيفاً كمن يتعامل مع مخلوق نبيل يثير الإعجاب، غير ان بصره ظل مستقيماً ثابتاً كما لو انه كان ينطلق من خوذة حربية مع أن كيتن لم يعتمر خوذة. عندما ودعها توسلت به البرتغاليةُ، مأخوذة بعاطفتها الأنثوية، ان يسمح لها على الأقل بغسل جراحه ولفها بضمادات جديدة، لكنه رفض، وودعها على عجل ثم ضحك في لحظة الوداع، فضحكت هي أيضاً.

كان الأسلوب الذي يفضُّ فيه الخصمُ النزاعَ عنيفاً فظّاً لايليق إلا بمقام رجل نبيل يرتدي مسوح الأساقفة، بيد ان هذا الأسلوب كان شديد الشبه بالتعاليم التي توحي بها هذه الثياب الأنثوية، خبيثاً وإستسلاميّاً وقاسياً تماماً، لأن الثروات والأملاك الواسعة قد تركت أثرها عليه ببطء وتدرّج في الأوقات التي لاتسمح في تقديم الضحايا وحينما يكون الموقع الإجتماعي أو النفوذ السياسي عاجزين عن تعبئة الأعوان والمريدين. كان النزاع نفسه يتفادى الحسم النهائي حتى اللحظة الأخيرة، إذ انه يخبو وتنثلم حدته كلما ازدادت المقاومة تأججاً، ويلتهب ويزداد ضراوة كلما اصبح مهدداً بالإنحسار. يحدث أحياناً ان تُقتحم قلعة، فإن لم يجتح أهلها الرعبُ على الفور، فانها ستقع لامحالة ضحية للذبح والتقتيل. أحياناً تعسكرُ قطعات من

الجنود أسابيع طويلة في الضواحي دون ان تفعل شيئاً سوى خطف الأبقار أو طعن بضع دجاجات. وهكذا تحولت الأسابيع الى فصول صيف وشتاء والفصول الى أعوام.

قوتان متصارعتان، واحدة عنيفة جسورة ذات روح قتالية هجومية عالية، لكنها ضئيلة العدد، والأخرى ثقيلة بالغة النعومة، لكنها وحشية الجسد، أعارها الزمن الطويل ثقلاً هائلاً.

كان السيد فون كيتن يدرك ذلك جيداً، وقد واجه فعلاً صعوبات كبيرة في منع كتيبة النبلاء المتطوعين المتضعضعة القوة من شن هجوم مباغت متسرع قد تفقد فيه آخر قواها، فإضطر الى الترصّد وإقتناص مواطن الضعف وتبذل الظروف ووقوع المستحيل الذي لاتأتي به سوى الصدفة وحدها. كان أبوه قد انتظر وكذلك فعلَ جدهُ. وحين ينتظر المرء أعواماً طويلة فلابد ان يقع الشيء النادر الوقوع. إنتظر السيد كيتن أحد عشر عاماً، طاف فيها حول قصور النبلاء وميادين القتال لكي يبقي على جذوة المقاومة مستعرة، حتى انه لقّب عن إستحقاق بالشجاع الجسور بعد مئات المعارك. ولكي يبعد عن نفسه تهمة التسويف والمماطلة في إدراة المعارك، أخذ يفتعل مصادمات دامية رهيبة لعله يؤجج بها غضب أتباعه على الأعداء، إلا انه كان يتجنب أيضاً حسم الصراع، تماماً مثلما يفعل الأسقف. لقد أصيب مرات عديدة بالجروح البسيطة، لكنه لم يمكث في المنزل أكثر من أثنتي عشرة ساعة. كانت الندب والخدوش وحياة التجوال والإغارة قد كسته بقشرة صلدة، لذلك كان يخشى البقاء في المنزل وقتاً طويلاً كالمتعب الذي لايقدر على الجلوس. كان عزاؤه الوحيد في تلك الأعوام هو ركوب الخيل المطهمة وقهقهات الرجال ونيران المشاعل وأعمدة الدخان التي تتصاعد مثل جذوع الغبار الذهبي بين الأشجار المضيئة

الخضرة وأثواب النساء المرفوعة المتطايرة والفلاحين المرعوبين والكلاب التي تتشمم الجرحى.

ظل كيتن طيلة تلك الأعوام رقيق الحاشية لطيفاً، وبدأ بعض الشيب يتسلل بصمت الى شعره البنّي، إلا ان وجهه ظلّ كما هو. كان يردّ على المّزح الجافة بحدة ظاهرة، وكان يفعل ذلك برجولة دون ان تتحرك عيناه إلا قليلاً. كان مسكوناً بهاجس الإندفاع الى الامام كلما وجد إغراءً في ذلك كالفلاّح الأجير الذي يسير خلف ثيران الحراثة، غير انه لم يرفع من صوته، بل يجعل كلماته قصيرة خفيضة. كان جميع المقاتلون يهابونه، ولم يستطع حتى الغضب النيل منه ولو لمرّة واحدة، إلا ان الغضب كان يشعّ من جبينه فيصبح قاتم الوجه متجهماً. كان ينسى نفسه في ميادين القتال، فيجري أمامه كل شيء سريعاً، وتنطلق منه حركات طاعنة، فيصبح ثملاً سكراناً بالدم، لايعلم في الواقع ماكان يفعل، إلا ان كلّ مايفعله كان صحيحاً، ولذلك فقد كان الجنود يألهونه، فنشأت الأسطورة القائلة انه، بفعل كراهيته للأسقف، قد باع نفسه للشيطان المجسّد في هيئة إمرأة غريبة ساحرة الجمال تسكن في القلعة، يأتي إليها سراً. عندما سمع السيد فون كيتن هذه الأقاويل للمرّة الأولى لم يسخط ولم يضحك، إنما صار وجهه ذهبياً عميقاً من الفرح. عندما يجلس في الخلاء الى موقد نيران أو قرب فرن فلاحيّ، وحين يصبح اليوم المنقضي طريّاً كالجلد الذي مسّه المطرُ فيتمدد في الحرارة، يبدأ بالتفكير حينئذ في أسقف ترينت الذي يتلفع في ملاءات من القطن الخالص، يحيط به رجال الاكليروس المتعلمون ويقف الرسامون على خدمته، بينما يحوم هو حوله كالذئب. إذاً بامكانه هو أيضاً الحصول على هذه الأشياء، فأمر بإحضار قسيس للترفيه عن النفس وكاتباً للقراءة وجارية ظريفة، ثم جلبوا له طاهياً

ماهراً من بلاد بعيدة لكي يبعد مطبخُ القصر شعورَ الزوجة بالحنين الى أهلها، وقاموا يستقبلون الدكاترة والتلاميذ الجوالين لكي يستمتعوا باحاديثهم بضعة أيام، وفرشوا السجّاد الثمين وكسوا الجدران بالاقمشة، إلا ان كيتن نفسه ظل بعيداً عن كلّ هذه التطورات.

تحدث كيتن آنذاك وطوال عام كامل بكلمات أخّاذة اثناء رحلته وغربته، وكان يفعل ذلك باسلوب طريف مجامل -إذ ان الكيتيين كلهم يتمتعون بروح تشبه الأشياء المتينة البناء والتي تتمتع أيضاً بروح كالحديد والنبيذ القوي والحصان ورذاذ النافورة- لكن وطنه كان بعيداً عنه آنذاك فاصبحت ذاته الحقيقية مثل مسافة شاسعة يخبّ فيها الجواد اسابيع طويلة دون ان يقطعها. والآن بات يستخدم كلمات خالية من الترابط، لكنه كان يفعل ذلك كلما رأى الخيول هاجعة في الاصطبل. كان يأتي في الليل ثم يغادر ممتطياً صهوة جواده، أو انه يمكث في المنزل من اللحظة التي تقرع فيها أجراس الكنيسة صباحاً حتى صلاة المساء. بدا السيد أليفاً مثل الحاجة التي إعتاد المرء على حملها زمناً طويلاً وحين تضحك أنت فانها تضحك أيضاً وحين تسير ترافقك وعندما تتحسسك يدك فانك تشعر بها، لكنك حالما تحاول إنتشالها لكي تتفحصها تراها تصمت وتشيح بوجهها جانباً. لو انه مكث ذات مرّة في الخارج فترة طويلة فانه سيبقى في حقيقة الحال كما هو. لم يتذكر انه قال يوماً للبرتغالية أنني كذا وأريد ان اصبح كذا، بل كان يحدثها عن الصيد والمطاردة والمغامرات التي قام بها، وهي، من ناحيتها، لم تسأله ابداً، مثلما هو متوقع من إمرأة شابة، عن تفكيرة في هذه المسألة أو تلك، إنما تفتحت بحيوية مثل زهرة، هكذا كما هو عهدها دوماً. كانت تقف على سلّم الكنيسة إستعداداً للرحيل، كما لو انها تقف على صخرة لتعتلي صهوة الجواد الذي سيحملها الى تلك

الحياة. كان بالكاد يعرف ولديه اللذين أنجبتهما له، هذان الولدان اللذان يحبّان أباهما حبّاً عميقاً، الأب الذي ملأ صيته آذانهما الصغيرة منذ ان بدأت تسمع. كانت غريبة ذكرى ذاك المساء الذي قدم فيه الطفل الثاني الى الحياة. عندما دخل كيتن رآها ترتدي ثوباً رقيقاً رمادي اللون خفيفاً مطرّزاً بالزهور الرمادية الغامقة، والجديلة مضفورة لإستقبال الليل والأنف الجميل يطل شامخاً بتحدّ على السطح الأصفر لكتاب فيه رسومات غامضة مضاءة. بدا هذا المنظر كالسحر. كانت تجلس هادئة في حلتها وتنورتها التي تدرجت ثنياتها بتناسق وإنسجام وفي هيئة سامية متدفقة مثل نافورة مياه برّاقة. وهل يمكن للماء المتدفق ان يجد خلاصاً لنفسه لا يمر عبر طريق السحر أو المعجزة لكي يتحرر من وجوده المحمول المتأرجح؟

إذا اقدم المرء على معانقة هذه المرأة الجالسة هنا فانه سيصطدم حالاً بشارة المقاومة السحرية. لكن هذا الأمر لم يقع. لكن أليست الرقة أشدّ غموضاً من أي شيء آخر؟

تطلعت إليه عندما دخل بهدوء كما يتطلع المرء الى معطف إرتداه زمناً طويلاً ثم وضعه في مكان ما وعندما إندس فيه ثانية لاحظ ان المعطف لم يزل الى حد ما غريباً عنه. وعلى العكس من ذلك فقد كانت حيل الحروب وأكاذيب السياسة والغضب والقتل تبعث الطمأنينة والإرتياح في نفسه، فهي مجرد عمل يجب ان ينجز لأن هناك عملاً ما قد أنجز. كان الأسقف يعتمد على قطعه النقدية، بينما يعتمد قائد حرب النبلاء على روح المقاومة في صفوف أتباعه، والأوامر واضحة، وهذه الحياة نفسها واضحة وضوح النهار ومحسوبة حساباً صارماً، وطعنة الرمح تحت الياقة الحديدية المزاحة قليلاً الى الجانب مسألة سهلة كما لو ان المرء يشير باصبعه قائلاً: هذا هو. أمّا الشيء الآخر فقد بدا

غريباً كالقمر، غير أن السيد فون كيتن كان يحب هذا الشيء الآخر في السرّ، ولم يعد يجد لذّة لا في النظام ولا في الثروة المتنامية ولا في إدارة الشؤون المنزلية. إذا كان قد تخاصم أعواماً طويلة على قطعة أرض مجهولة المالك، فان اعماقه لم تكن تنزع الى سلام الربح والمكسب، إنما تطمح الى التحرر من روحه نفسها، إذ أن في جبين الكيتيين يرقدُ العنف، لكن لم تنطلق من هذا الجبين سوى الأفعال الصامتة. حين يركب كيتن جواده في الصباح يشعر بالفخر لروح المقاومة والتحدي، يشعر بروح روحه. لكنه عندما يترجل في المساء تجتاحه البلادة الكدرة التي سببتها المبالغة في كلّ ماهو معاش، تلك البلادة التي تمكنت منه على نحو كما لو أنه أنهك قواه طوال يوم كامل لكي لايتحول الى شيء جميل ممتنع عن الوصف دون أن يكون قد بذل جهداً من أجل هذه الغاية.

إن هذا الأسقف المتسلل المتلصص يمكن أن يصلّي الى الله إذا ما ضيّق عليه فون كيتن الخناق، بينما كيتن لا ينجو بنفسه إلا عبر المزارع والحقول المزهرة المورقة، شاعراً بتموجات الفرس الجموح من تحته وهي تسحر بحدواتها نغماً رقيقاً وديّاً. شعر بالارتياح لأن أشياءً كهذه لم تزل موجودة. إن المرء يعيش ويصنع الموت دون أن يتعرض هو نفسه الى ذلك. هناك شيء ما ينكرُ ويزيح الشيء الآخر الذي ينسل الى النار كلما يحدّق فيه المرء ثم يختفي مثل أمرء وتّرته الأحلام فانتفض متلفتاً. كان السيد فون كيتن يغزل أحياناً خيوطاً طويلة متشابكة كلما فكّر في الأسقف الذي فعل به كلّ هذه الأشياء وبدا له أن المعجزة وحدها هي التي سوف تنظم خيوط الغزل.

إذا لم تقلّب زوجته الصور الملّونة في كتبها فانها تصطحب كبير الخدم لتتجول معه في الغابات، وكلما كشفت غابة عن نفسها فانها

تخفي روحها. كانت تتوغل في الغابة مخترقة الجذوع والعروق متسلقة الأحجار متفحصة آثار الحيوانات الوحشية، لكنها لم تعد الى منزلها إلا وهي تحمل المخاوف والصعوبات التي ذللتها وكذلك أيضاً حبّ الإستطلاع الذي يفقد عادة أي إثارة إذا ما أخرجه المرء من مكانه في الغابة. لاشيء آخر كان ينكشف أمامها سوى الصورة الخضراء المنعكسة التي كانت تعرفها من خلال الحكايات التي سمعتها قبل أن تأتي الى هذه البلدة، وإذا لم يتوغل المرء في أعماق الصورة فأنها لابد أن تنطبق خلف ظهره. تمكنت البرتغالية أثناء ذلك من المحافظة على نظام القصر بكسل وإرتخاء.

هل كان ولداها اللذان لم يريا البحر ولداها حقّاً؟ كانا يبدوان لها أحياناً مثل ذئبين. ذات مرّة جلبوا لها ذئباً صغيراً من الغابة فقامت أيضاً بتربيته، فنشأت بين الذئب وكلاب القصر الضخمة مهادنة لاتبعث على الإرتياح، نشأ نوع من التسامح دون حاجة الى الإشارات. كلّما خطا الذئب في فناء القلعة تنتفض الكلاب وتتطلع إليه دفعة واحدة، لكنها لم تنبح أو تهرّ. كان ينظر الى الأمام باستقامة، بالرغم من انه كان يحرّك بصره قليلاً نحو الكلاب، إلا أنه لايبطيء من سيره قيد شعرة، فيمضي هكذا متصلباً لكي لايترك مجالاً لمراقبته. كان يتعقب سيدته في كلّ مكان، من غير ان يظهر لها أي علامة حبّ أو ثقة، ويرشقها على الدوام بنظراته القوية التي لاتفصح عن شيء، وهي، من ناحيتها، أحبت الذئب لأن عضلاته وشعره البنيّ وقوّة عينيه ووحشيته الصامتة تذكرها دائماً بالسيد فون كيتن. ذات يوم جاءت اللحظة التي كان ينتظرها المرء، إذ أصيب الأسقف بمرض توفى على أثره، فاصبح المجمع الكنسي بلا راع. هنا باع كيتن كل ماهو متحرك وقبض رهانات على الأملاك الثابتة وجهّز بكلّ الوسائل جيشاً صغيراً ضارباً جعله تحت

امرته ثم بدأ يتفاوض. وضعت الكنيسة نفسها أمام خيارين، أمّا ان تواصل الحرب ضدّ جيش تسلّح حديثاً قبل ان يفصل الراعي المقبل بالأمر، وأمّا ان تضع للحرب نهاية غير مكلفة، فاستقر المجلس الكنسي على الرأي الأخير، إذ لايمكن ان يحدث أكثر من ان يغنم كيتن، هذا الذي كان آخر من يشكل خطراً كبيراً، الحصة الأكبر لقاء ألا تتعرض الكنيسة الى المزيد من الضعف وإنحسار النفوذ. وهكذا وجد الصراع نهايةً عند الجيل الرابع، فانهار فجأةً هذا الذي كان مثل حائط يراه المرء كل صباح أثناء الفطار، لكنه في الواقع لايراه. حتى ذلك الحين كانت حياة الكيتيين تسير مثلما هي دائماً، أمّا الآن فلم يعد في حياة هذا الكيتي شيء يفعله سوى التدوير والتحوير والحياة الحرفية التي تفتقد الى الهدف الرجولي.

في طريق العودة قرصته ذبابة.

إنتفخت يده مباشرة وشعر بإعياء شديد. رجع الى حانة القرية الصغيرة البائسة. وبينما كان جالساً خلف الطاولة الخشبية الملطخة بالشحوم غلبهُ النعاسُ، فوضع رأسه على القذارة. في المساء، حين استفاق إجتاحته الحمّى. لو انه كان على عجلة لواصل رحلته، لكنه لم يكن على عجلة من أمره . في الصباح، عندما حاول إمتطاء جواده، سقط من فرط الإعياء. وشيئاً فشيئاً سرى الورم في ذراعه وظهره، فعصرهما في الدرع الذي اضطر الى فتحه ثانية، وحالما فعل ذلك إجتاحته رعشة الحمّى العنيفة التي لم ير في حياته مثيلاً لها، فارتجفت عضلاته وتراقصت حتى بات من الصعب ان تلامس يده اليد الأخرى وأخذت أجزاء الدرع نصف المنزوعة تقرقع مثل مزراب حطمه الإعصار. شعر بقوّة الإرتجاف فضحك متبرماً من صليل الدرع، إلا ان قدميه أصبحتا ضعيفتين مثل قدمي صبيّ صغير، فبعث رسولاً الى

زوجته ورسلاً آخرين الى حجّام والى طبيب مشهور.

أمر الحجّام الذي كان أوّل الواصلين باحضار كمادات ساخنه من الأعشاب الطبية وطلب ان يُسمح له بالقشط والجراحة، فسمح له كيتن، الذي نفد صبره تماماً لأنه يريد الوصول الى المنزل، بالقشط حتى أصبح جسده يحمل جراحاً جديدة تعادل نصف الطعنات التي خلفتها الحروب. كانت عجيبة هذه الآلام التي لم يستطع ان يفعل شيئاً لايقافها.

رقد السيد كيتن يومين كاملين تحت كمادات الأعشاب الماصة. بعد ذلك تمّ لفّه بالشاش من هامة رأسه حتى أخمص قدميه ثم نُقل الى المنزل. إستغرقت المسيرة ثلاثة أيام، غير ان هذه المعالجة الفظّة، التي كان لها ان تؤدي الى الوفاة أيضاً، لأنها إستنفدت جميع القوى الحياتية المقاومة، استطاعت إيقاف المرض عند حدّه. عندما أدركوا القصر إنتابت السيد المتسمم حمّى شديدة، لكن القيح توقف عن الإنتشار. دامت هذه الحمّى التي إنتشرت كالنار في الهشيم بضعة أسابيع، كان المريض ينصهر في نارها يوماً بعد آخر، غير ان السوائل والعصائر الشريرة بدأت أيضاً بالتبخر. لم يستطع حتى الطبيب المشهور ان يفعل شيئاً آخر غير هذا الذي فعله، إلا البرتغالية التي قامت تصنع علامات سرّية في الباب وفي سرير النوم. عندما جاء اليوم الذي لم يبق فيه من السيد فون كيتن سوى هيكل من الرماد الرقيق المتوهج إنخفضت الحمّى درجة واحدة وظلّت تستعر في أعماقه مثل شعلة لطيفة هادئة.

كانت غريبة هذ الآلام التي لايستطيع المرء ان يفعل إزاءها شيئاً، ولايمكن لأحد ان يتجاوزها مالم يعش أولاً في قلبها مثلما فعل هذا المريض. أخذ كيتن يغط كثيراً في النوم ويبدو غائباً عن الوعي أو غير حاضر حتى لو فتح عينيه. حالما يعود إليه وعيه يصبح هذا الجسد

الطفولي الواهن والمسلوب الإرادة ليس بجسده وتصبح هذه الروح الهزيلة التي يحركها نفس واحد ليست بروحه. لقد كان مبعداً معزولاً دون شكّ، ينتظر العودة الى الحياة ثانية. لم يكن يعلم ان الموت يمكن ان يكون هكذا وديعاً مسالماً. سبقه جزء من ذاته موتاً وانفرط عنه مثلما تنفرط فرقة جوّالين. وبينما كانت عظامه مرمية على الفراش الممهد إنحنت عليه إمرأته، فأخذ يراقب حركات وجهها بفعل الفضول والبحث عن تسلية. ودفعة واحدة بات كلّ ما كان يحبه نائياً عنه. لقد إنفصل السيد فون كيتن عن نفسه وعن ساحرته الليلية المقمرة اللتين تنحيتا عنه خلسة. إنه مازال يراهما ويعلم انه سوف يلحق بهما إذا ما قفز قفزة كبيرة، لكنه لم يعد متأكداً فيما إذا كان قد تبعهما حقّاً أم أنه مازال راقداً في الفراش. إن هذه الأمور موضوعة دائماً في يد كريمة تشبه المهد الرقيق الرحيم الذي يتأمل كل شيء يرقد فيه دون ان يجعل من الأمر شيئاً جوهرياً. يمكن ان يكون هذا هو الله. لم يشكّ في ذلك ولم ينفعل، بل ظلّ ينتظر دون ان يرد حتى على إبتسامة البرتغالية العذبة عندما إنحنت عليه أو يردّ على الكلمات الرقيقة.

بعد ذلك جاء اليوم الذي أدرك فيه انه سيكون يومه الأخير مالم يجمع إرادته كلّها لكي يبقى على قيد الحياة، فكان هذا اليوم الذي إنخفضت في مسائه حرارة الحمّى. عندما شعر بدرجة التحسن الأولى أمر بان يحمل كلّ يوم الى البقعة الخضراء التي تغطي أنف الصخرة المتطاولة في الفضاء بلا جدران. رقد هناك تحت الشمس ملفوفاً في ملاءاته. كان ينام ويصحو دون ان يعلم أيهما كان يفعل. إستفاق ذات مرّة فرأى الذئب ينتصب أمامه، فحدّق في عينيه المرهفتين الصقيلتين دون ان يستطيع الحراك. لم يعرف كم من الوقت مضى على ذلك. كانت زوجته تقف على رأسه والذئب الى جانب ركبتها، فاطبق كيتن

عينيه كما لو انه لم يكن نائماً. حين نُقل الى فراشه الجديد أمر باحضار القوس، لكنه كان ضعيفاً عاجزاً عن شدّ الوتر، فتعجب من حالته. أشار الى الخادم بالتقدم وسلّمه القوس ثم أمره بقتل الذئب، فتردد الخادم في البدء، لكن كيتن إستشاط غضباً كالطفل الصغير. في المساء عُلّق فراء الذئب في فناء القلعة. عندما رأت البرتغالية ذلك واستفسرت من الخادم عن الموضوع، تجمّد الدم في عروقها، فتقدمت من فراشه. كان يرقد شاحباً أصفر الوجه كالجدار. حدّق في عينيها للمرّة الأوّلى، فضحكت ثم قالت «سأخيط قلنسوة من فراء الذئب وأمتص دمك في الليل.»

بعد فترة قصيرة تمّ صرف القسيس الذي قال ذات مرّة «ان الأسقف يمكن ان يصلّي الى الله، وهذه مسألة ستكون خطيرة بالنسبة لكم»، ولمسَ القسيسُ السيد فون كيتن لمسة الإحتضار وأقام له الوداع الكنسي، إلا ان الطرد لم يتم على الفور، إذ ان البرتغالية ألقت بثقلها في الموضوع متوسلة ان يُسمح لرجل الدين بالبقاء حتى يجد له مأوى آخر، فاستسلم السيد كيتن. لقد إشتد هزاله وكثر نومه في بقعة الحشائش الخضراء تحت الشمس، وحين استيقظ، كان صديق صباها قد حضر. لمحه يقف الى جانب البرتغالية التي قدم من وطنها تواً، فبدا هنا، في هذه البلدة الشمالية، شديد الشبه بها. حيّاه الزائر بطريقة نبيلة مهذبة ونطق بكلمات لابد ان تكون مليئة بالمحبة واللطف مثلما أوحت ملامحه، في حين ظلّ كيتن مضطجعاً في العشب خجولاً مثل الكلب. ربما وقع له هذا للمرّة الثانية، إذ انه كان أحياناً غائباً عن الوعي تماماً.

أخيراً لاحظ ان طاقيته أصبحت واسعة، طاقية الفراء الناعم التي كانت تستقر مشدودة على صدغية، غاصت بجذبة واحدة الى أسفل

أذنيه فاطبقت عليهما. كانوا ثلاثة حاضرين، فخاطبته زوجته «ياإلهي، لقد أصبح رأسك صغيراً!»

خطر في ذهنه أوّل الأمر هو انه ربما قصّ شعره أكثر مما يجب، غير انه لم يتذكر متى حدث ذلك. سرح بيده خلسة الى رأسه، لكن شعره كان أطول من المعتاد، شعثاً منذ ان ادركه المرض. لابد ان تكون الطاقية نفسها قد اتسعت، هكذا فكّر، إلا انها كانت جديدة الى حد ما، فكيف لها ان تتسع وهي محفوظة في الصندوق دون إستعمال؟

صنع من هذا الحدث مزحة، فقال لأنه كان يعاشر المقاتلين وحدهم طيلة تلك الأعوام بدلاً من مرافقة الفرسان المتعلمين فقد أصبحت جمجمته صغيرة. لكنه شعر على الفور بتفاهة هذه النكتة الثقيلة التي خرجت من فمه، ومع ذلك فانها لم تحسم المسألة. وهل يمكن لجمجمة ان تصبح صغيرة؟ يمكن للقوّة ان تتراخى تحت عروق الجلد، يمكن للشحم ان يذوب قليلاً تحت فروة الرأس بفعل وطأة الحمّى، لكن ماذا يعني كلّ هذا؟ بدا أحياناً كما لو انه يسوي شعره ويصفقه بحذر، أو انه يمسح العرق، أحياناً ينحني غفلة في زاوية الظل ويمسك رأسه سريعاً باطراف أصابعه مثلما يفعل البنّاء بفرجال القياس، فيتخذ قياسات متعددة، لكن لامجال هنا للشكّ، لقد أصبح الرأس صغيراً، وعندما يجسّه من الأسفل، متحسساً الأفكار، فانه يبدو أشدّ صغراً، هكذا مثل طاستين إنطبقتا على بعضهما. إن المرء لايستطيع دوماً تفسير الكثير من العوارض، إذ ان المرء لايحملها على كتفه ولايشعر بها حين يدير عنقه الى شخصين يتحدثان في وقت يتظاهر فيه بالنوم.

لقد نسي كيتن اللغة الأجنبية كلها تقريباً ماعدا بعض المفردات. إلا انه أستطاع ذات مرّة ان يفهم جملة كاملة «إنك لاتفعل ماتريد، بل

تفعل ما لاتريد» ، فبدت له النبرة أكثر الحاحاً من المزحة والدعابة. ماالذي كان يعنيه صاحبها بهذه الجملة؟

ذات يوم أطل برأسه من الشبّاك فترة طويلة، يتأمل المياه الهادرة، ثم أخذ يفعل ذلك دائماً وكأنه يتسلّى بلعبة: يتطلع الى الصخب المتناثر كالتبن المذرّى ثم يغلق أذنيه، وحين يزول عنه الصمم، يطفو الحديث الهامس للمرأة مع الشخص الآخر عائماً في أذنيه عن بعد. كان حديثاً وديّاً حيويّاً، وتراءى له كما لو ان روحيهما بدأتا تتحسسان بعضهما. في المرّة الثالثة قام يتعقبهما عندما كانا يتجولان مساءً في فناء القصر. حالما يهبطان السلّم على ضوء المشاعل، يتابع كيتن ظلهما وهو يسقط على قمم الأشجار، ثم يقرفص فوراً عندما يرى ظلهما الذي سرعان ما يتوارى بين الأغصان.

لو ان التسمم أصابه في وقت آخر لعالجه بركوب الخيل أو أحرقه بالنبيذ. لكن القسيس والكاتب كانا يلتهمان ويشربان حتى أخذ الطعام والنبيذ يخرجان من زوايا فميهما، بينما وقفَ الفارس الشاب يلّوح لهما بابريق الخمر ضاحكاً كما لو انه يهيّج كلبين على بعضهما.

كان النبيذ في الواقع يثير إمتعاض كيتن، هذا النبيذ الذي يكرعه هؤلاء الرعاع المتسربلين بمسوح اللاهوت. كانوا يتحدثون عن رايخ الألف عام وعن موضوعات الدكاترة وحكايات فراش القشّ باللغة الألمانية وباللاتينية الكنسية، وقام أحد محبي الإنسانية العابرين بترجمة ماسقط من متاع الحديث في اللغتين الولشية والبرتغالية، هذا الأنساني الذي فُسخت قدمه وعُولجت هنا بتقدم ملحوظ. «سقط من الجواد في اللحظة التي قفز فيها أرنب أمامه» ، أفصح الكاتب الرحّال بما جاد به فكره. «كان قد ظنّه تنيّناً» ، قال السيد فون كيتن بتهكم ساخط وهو يقف متردداً مُحرجاً. «لكن يجب ان ينطبق ذلك على

الجواد أيضاً» ، زعق قسيس القلعة، «وإلا ما كان ليسقط.» «إذاً لقد أظهر الرجل المتعلم حكمة بخصوص الخيول أكثر عمقاً من معرفة السيد» ، ثم ضحك السكارى من السيد فون كيتن، فنظر إليهم وتقدم خطوة من القسيس ثم صفعه على وجهه. كان القسيس شاباً فلاّحاً مربوع القامة، فاحمرّ وجهه أثر الصفعة، لكنه سرعان ما أصبح أصفر شاحباً وظل جالساً. وقف الفارس الوسيم يتطلع مبتسماً ثم خرج يفتش عن صاحبته. «لماذا لم تطعنه بالخنجر؟» همس انساني الأرانب عندما بقي بمفرده مع القسيس. «إنه قوّي مثل ثورين» ، أجاب القسيس، «فضلاً عن ان التعاليم المسيحية مفيدة جداً في تقديم العزاء في حالات كهذه.»

بيد ان السيد فون كيتن كان في حقيقة الحال ضعيفاً للغاية، لم تعد إليه الحياة إلا ببطء، ولم يبلغ بعد المرحلة الثانية من الشفاء.

لم يواصل الضيف الغريب رحلته، ولم تفقه شريكته في اللعبة تلميحات سيدها. لقد انتظرت الزوج أحد عشر عاماً، هذا الزوج الذي كان طوال هذه الاعوام عاشقاً للصيت والفنطازيا، والآن بات يطوف خائراً في فناء القصر، متهتك القشرة بفعل الداء الوبيل، على الرغم من انه يبدو حيوياً الى حد ما، إضافة الى إحتفاظه بنبله وشهامته. أمّا هي فلم تعد تفكّر في هذه الأشياء كلها. لقد تعبت من حياة هذه البلدة التي وعدتها بتحقيق المعجزات، إلا أنها لم تحقق ماوعدت به، لذلك فانها أخذت تفكر في الرحيل مع هذا الأهوج اللعوب الذي ينضح بعطر الوطن ويحمل أفكاراً تبعث على السخرية. ليس هناك مايمكن ان تلوم نفسها عليه، إذ انها أصبحت ساذجة منذ أسابيع، وترك هذا التطور تأثيراً حسناً عليها، فأخذ وجهها يشعّ مثلما كان قبل أعوام.

تنبأت إمرأة عرّافة للسيد فون كيتن عندما سألها بالقول: «إنك سوف تشفى من الداء إذا ماقمت بعمل ما.» ولمّا ألحّ عليها صمتت وحاولت التهرب منه ثم أوضحت أخيراً أنها نفسها تجهل هذا العمل.

كان يحترم أصول الضيافة ويحلّ إشكالاتها بالقطع الليّن بدلَ الكسر، لأن قدسية الحياة نفسها وحقوق الضيف لم تشكّل يوماً حاجزاً صعب الاختراق أمام رجل حلّ ضيفاً غير مدعو على أعدائه أعواماً طويلة، غير ان بطء الشفاء جعله هذه المرّة نزقاً معتداً بنفسه الى حد ما، لأنه أصبح قليل الحيلة. تراءى له ذكاؤه الماكر ليس أفضل من المهارات اللفظية لهذا الفارس الشاب. فجأة حدث له أمر عجيب، إذ بدت له زوجته، وهو في غيوم المرض الكثيفة التي غشيته، أكثر طراوة مما يجب، بل أنها لم تتغير عمّا كانت عليه، غير انه تعجب من ان حبها له صار أحياناً قوياً عارماً أكثر من ذي قبل، بالرغم من ان لاسبب هناك يتعلق بغيابه عن القلعة. لم يستطع البتّ فيما إذا كان هذا الشعور قد أسعده أم جعله حزيناً، لاسيما في هذه الأيام التي زادته قرباً من الموت، حتى انه أصبح عاجزاً عن الحراك.

كلّ ما نظر الى عيني زوجته رآهما مشحوذتين ناعمتين ترقد فيهما صورته، لكنهما لم يتيحا لبصره التوغل الى اعماقها.

إنتابه شعور بان معجزة ما لابد ان تقع، لأن أي شيء آخر لم يقع الى الآن. إذاً على المرء ألا يتحدى قدره ويستنطقه في اللحظة التي يصمت فيها القدر، إنما عليه الإصغاء لما هو آت.

ذات نهار، عندما تسلقوا الجبل في جمع، رأوا قطّة صغيرة أمام باب القلعة. كانت تقف مباشرة أمام الباب، كما لو انها لاتريد الوقوف على الجدار مثلما تفعل القطط عادةً، بل تطلب أذناً بالدخول عملاً

بمبدأ البشر. أحنت القطّة ظهرها تحيةً وتمسحت بثياب وأحذية المخلوقات الكبيرة التي تعجبت من حضورها الذي لامبرر له. سُمح لها بالدخول وبدا الأمر وكأنهم إستقبلوا ضيفاً فأخذوا يتصرفون كما لو انهم تبنّوا طفلاً وليس مجرد قطّة صغيرة. كان هذا الحيوان الرقيق، الذي لم يبحث عن سعادته في الأقبية أو فوق السطوح، يضع شروطاً يتطلبها التبني وحده، لذلك ظلت ترافق مجتمع البشر، لاتفارقه لحظة واحدة. كانت تتمتع بحريّة التصرف في وقتها، وتلك موهبة صعبة التصديق، إذ ان هناك حيوانات نبيلة أخرى في القصر، كما ان الناس انفسهم كان لديهم مايشغلهم. لكن توجّب عليهم منذ دخولها ان يخفضوا نظرهم الى الأرض، ليبصروا هذا الكائن الصغير الذي كان يتصرف دون ان يشعر به أحد، هكذا صامتاً هادئاً، بل يمكن القول انه كان حزيناً مشغول الفكر نوعاً ما. كانت القطّة تلعب وتمرح باسلوب يتوقعه الناس عادة من قطّة صغيرة، تتصرف بلطف وهي على علم بذلك، غير انها لاتفعل ذلك من كل قلبها. جعلها هذا الشيءُ الذي ينقص القطّة المألوفة تبدو كائناً آخر، بل جعلها تبدو كائناً خارقاً، أو هالة قدسية صامتة أحاطت بهم دون ان يجد أي واحد منهم الجرأة على الاعتراف بهذه الحقيقة. إنحنت البرتغالية على الكائن الصغير الذي انقلب على ظهره في حضنها ومدّ مخالبه نحو اصابعها المداعبة وكأنه طفل، ثم أنحنى صديق الصبا ضاحكاً وهو يتطلع الى القطّة والى حضن المرأة في آن.

ذكّرت هذه اللعبة المسلية السيد فون كيتن بمرضه الذي تغلب عليه بمقدار النصف، هذا المرض الذي بدا وكأنه حلّ بكلّ رهافته القاتلة في جسم هذا الحيوان وصار يتقاسمه معهم كلهم.

قال أحد الخدم: أصابها الجرب.

تعجّب كيتن لأنه لم يلحظ ذلك شخصياً. عاد الخادم يردد: يجب قتلها سريعاً.

منحوا القطّة اسماً أقتبس من كتب الأساطير. أصبحت الآن أكثر رقّة وطواعية وظهر عليها المرض والهزال واضحاً على نحو مباغت. كانت تطيل الرقاد لتريح نفسها من مشاغل العالم، وتخفي مخالبها الصغيرة في خوف رقيق. كانت أيضاً تحدّق فيهم واحداً بعد الآخر، في الكيتييّنِ والبرتغاليّ الشاب الذي جلس محدودباً لايحيد بصره عنها أو عن الحضن الذي هجعت فيه. كانت تنظر إليهم كما لو انها تترجى الصفح والمغفرة، وكان من البشاعة ان تعاني في السرّ نيابة عن الآخرين. بعد ذلك جاءت لحظة إستشهادها. ذات ليلة بدأ القيء، فتقيأت حتى الصباح فازدادت هزالاً وحيرة تحت أشعة النهار الذي بزغ ثانية كما لو انها تلقت ضربات متتابعة على رأسها. ربما قدّم أحد ما للقطة المسكينة الجائعة الكثير من الطعام مأخوذاً بالعاطفة الأنسانية، لذلك أصابها الإعياء.

وبما انها لم تستطع البقاء في حجرة النوم، فقد وضعوها مع الصبيين في غرفة كبيرة، لكنهما تذمرا بعد يومين لأن حالتها لم تتحسن، أو ربما قذفا بها في الليل خارج الغرفة. والآن فانها لم تكتف بالتقيؤ وحده، إنما امتنعت أيضاً عن التغوّط، وبات وضعها لايبعث على الإطمئنان. كانت هذه بمثابة تجربة صعبة مثيرة للحيرة، تجربة تتأرجح بين الهالة القدسية الغامضة والقذارة المكشوفة البشعة. أثناء ذلك أُتخذ القرار. لقد علموا من أين جاءت، لذا يجب ان تعود الى هناك. كانت قدمت من بيت فلاّحي يقع قريباً من النهر عند أسفل الجبل، ويمكن القول بلغة اليوم إنهم اعادوها الى إدارة بلديتها، لأنهم لايريدون تحمّل المسؤولية أو ان يجعلوا من انفسهم محطّ السخرية،

لكن الضمير بدأ يعذب الجميع.

أعطوا الفلاحين الذين لاتهمهم القذارة كثيراً، شيئاً من الحليب واللحم والنقود ليعتنوا بالقطّة. أخذ الخدم يهزّون رؤوسهم من تصرف السيد. قال الخادم الذي حمل القطّة الى أسفل القلعة، إنها تبعته فإضطر ان يعود إليها مرّة ثانية.

وبعد يومين رجعت القطّة من جديد الى القصر. أصبحت الكلاب تتجنبها ولم يجرؤ الخدم على طردها خوفاً من السيد، وعندما تطلعت فيهم بات واضحاً على نحو صامت، ان أي أحد لن يقدر على منعها من الموت هنا. أصبحت شديدة الهزال خافتة البريق، لكنها إستطاعت ان تتجاوز مرحلة المعاناة المثيرة للغثيان، وبان عليها الضمور وحده. أعقب ذلك يومان حدث فيهما أضعاف ما حدث في الأيام الماضية: المشي البطيء الرقيق في مأواها الذي خصص لها، إبتسامة المخالب المرتبكة عندما تهجم على قصاصة ورق يحركها المرء أمامها. كانت أحياناً تترنح ترنحاً خفيفاً من شدة الضعف، على الرغم من انها تستند الى أربع قوائم وفي اليوم التالي بدأت تسقط الى الجانب.

يمكن ان لا يعتبر هذا الضمور شيئاً غريباً نادراً لو انه حدث لإنسان، لكنه تحوّل في حالة هذا الحيوان الى صيرورة وتجسّد بشريين. كانوا يتطلعون إليها بخشية ورهبة، ولم يبق أحد من هؤلاء البشر الثلاثة بعيداً عن الفكرة القائلة ان ما يراه أمامه الآن هو مصيره الشخصيّ وقد تجسّد في هذه القطّة الصغيرة التي تحررت بمقدار النصف من كل ماهو أرضيّ. في اليوم الثالث بدأ القيء والإستفراغ من جديد. هنا إنتصب الخادم، وبالرغم من انه لم يجرؤ على إعادة السؤال، إلا ان صمته قال كلّ شيء: يجب قتلها. طأطأ البرتغالي رأسه كما لو ان حالة من الوسوسة أصابته، ثم قال لصاحبته: ليس هناك أي حلّ

آخر، وان الأمر بدا بالنسبة له وكأنه وقّع قرار اعدامه بنفسه. تطلع الاثنان معاً الى السيد فون كيتن الذي أصبح وجهه أبيض شاحباً كالجدار، ثم نهض وغادر الغرفة. هنا قالت البرتغالية: خذها.

حمل الخادم القطّة المريضة الى حجرته، وفي اليوم التالي إختفت.

لم يسأل عنها أحد. عَلِمَ الجميع انه قتلها. شعر الجميع بذنب لايوصف. لقد إختفى جزء منهم الى الأبد. كان الأطفال وحدهم رأوا من الطبيعي ان يتخلص الخادم من قطّة قذرة لايستطيع أحد اللعب معها. لكن كلاب القصر أخذت تتشمم من حين الى آخر بقعة أعشاب خضراء أشرقت عليها الشمس، فتصلّب سيقانها وتنفش فراءها ثم تنظر شزراً.

في لحظة كهذه تقابل السيد فون كيتن والبرتغالية وبقيا واقفين جنب بعضهما يتطلعان الى الكلاب، إلا انهما لم يجدا كلمة واحدة يمكن ان تقال. كانت العلامة وحدها حاضرة، لكن من ذا الذي يقدر على تفسيرها؟ بل ماالذي سوف يحدث بعد الآن؟

فجأة تشكلت قبّةٌ هائلة من الصمت أطبقت عليهما معاً.

«إذا حلّ المساء ولم تبعدهُ، فسوف أقتله» ، هكذا فكّر السيد فون كيتن، غير ان المساء جاء وانتهى طعام العشاء ولم يتحقق هذا الشيء. جلس كيتن على نحو جاد، ملتهباً تحت نار الحمّى الخفيفة، ثم نهض ليتمشى في فضاء القلعة لعلّهُ يبرّد نفسه. مكث في الخارج فترة طويلة، لكنه لم يستطع إتخاذ القرار الحاسم الذي كان زماناً مجرد لعبة في يديه، هذا السيد الذي كانت موسيقى حياته كلّها عبارة عن صليل السيوف وتثبيت الدروع وسرج الجياد، لكنها تحوّلت الآن الى نشاز منفر. بدا له القتال مثل الحركة الغريبة الخالية من المعنى، وتراءى له حتى طريق الخنجر الصغير درباً طويلاً لانهاية له، درباً يذوي فيه المرء

ويجفّ. لم تكن المعاناة من طبعه، لذلك شعر باستحالة شفائه إن لم يتخلص أولاً من المعاناة، فنشأ بين القتال والمعاناة مناخ آخر شديد الغرابة: عندما كان صبياً أراد دائماً ان يتسلق الصخرة التي إنتصبت فوقها القلعة العصية على التسلّق. لكن هذه كانت مجرد فكرة عبثية إنتحارية، أمّا الآن فقد إجتاحه شعور غامض يشبه الحكم الإلهي أو المعجزة الموشكة الوقوع: ليس هو الذي سيقطع هذا الطريق، إنما القطّة الصغيرة القادمة من عالم الآخرة، هكذا بدا له، فهزّ رأسه بهدوء ضاحكاً لكي يحسّ بوجوده على كتفيه. أدرك في هذه اللحظة انه قطع شوطاً بعيداً في الدرب الذي ينحدر أسفل الجبل. وبمحاذاة النهر، في العمق، إنحرف باتجاه الكتل الصخرية التي كان الماء يتدافع من بينها، مخترقاً الأحراش الكثيفة متسلقاً الجدار. كان القمر يكشف النتوءات التي تستطيع أصابع القدمين واليدين التشبث بها. فجأة تدحرجت صخرة من بين قدميه، فأصابت الشرايين أولاً ثم القلب. أرهف كيتن السمع، يبدو ان الصخرة إستغرقت دهراً طويلاً قبل ان تلطم الماء. من المحتمل انه خلّف وراءه ثلث الجدار على الأقل. هنا انتبه الى نفسه مدركاً ما كان يفعل، إذ لاأحد هنا يستطيع النزول الى الأسفل إلا جثة هامدة. أخذ يتحسس نفسه. وفي كلّ قبضة كُانت الحياة تتعلق بالحزيمات العشر لعروق الأصابع. بدأ العرق يسحّ من الجبين والسخونة تتطاير من الجسد، تحوّلت الأعصاب كلّها الى خيوط من حجر. ياله من شعور غريب! لقد سرت القوّة والعافية في أطرافه وهو في غمرة النزاع مع الموت وكأنهما رجعتا الى جسده من الخارج بعد غياب. الآن تحقق المستحيل. عليه ان يتجنب الصخرة الناتئة، فاستطاع إثر ذلك ان يثبّت ذراعه في احدى النوافذ. كان يعلم أين هو الآن. تزحزح الى الداخل ثم جلس على قاعدة النافذة مثبتاً قدميه في أرض الغرفة.

ومع القوّة رجعت الضراوة والوحشية أيضاً، فجذب نفساً عميقاً. كان خنجره لم يزل ثابتاً في الخصر، لم يفقده. تراءى له ان الفراش سيكون خالياً. إنتظر حتى يهدأ وجيف قلبه ورئتيه. بدأ يشعر على نحو واضح ان لا أحد في الغرفة سواه. تسلل الى الفراش: لم يكن شخص غريب قد رقد فيه هذه الليلة. تسلل عبر الغرف والاروقة والأبواب التي لايستطيع أحد العثور عليها دون دليل، ثم وقف أمام مخدع زوجته ينصت ويترقب، لكن ليس هناك أية همسة تفصح عن نفسها. إنسل الى الداخل. كانت البرتغالية تتنفس بعذوبة وعمق. أحنى ظهره وأخذ يفتش في الزوايا المعتمة ويتحسس الجدران، وعندما تسلل الى الخارج كاد يغنّي من فرط الفرح الذي هزّ شكّه وإرتيابه. جاب القصر مستطلعاً كما لو انه يبحث عن مفاجأة سارة، فكانت البلاطات والألواح الأرضية تقرقع تحت قدميه. هنا هتف به أحد الخدم، من أنت؟ فسأل عن الضيف، قال الخادم انه واصل رحلته بعدما أطلّ القمر.

جلس كيتن على كومة من جذوع الأشجار المنزوعة اللحاء الى النصف، فتعجب الحرّاس من طول جلوسه. فجأة إجتاحُه يقين قاطع، هو انه إذا ما خطا في هذه اللحظة نحو مخدع البرتغالية فسوف تكون هي أيضاً قد غادرت. قرع الباب بشدة، ففزعت المرأة الشابة كما لو انها إنتظرت ذلك في الحلم. رأته منتصباً أمامها في ثيابه التي خرج فيها. لم يعد هناك ما يمكن نفيه أو إثباته، لكنها لم تطرح عليه سؤالاً، وهو، من ناحيته، لم يكن بمقدوره ان يسأل شيئاً. جذب الستارة الثقيلة من النافذة، فارتفعت ستارة الصخب والهدير التي ولد ومات الكيتيون كلهم وراءها.

«إذا كان الله يستطيع ان يتحوّل الى إنسان، فان بإمكانه أيضاً ان

يتحوّل الى قطّة» ، قالت البرتغالية، فكان عليه ان يضع يده على فمها بسبب هذا الكفر، لكنهما كان يعلمان ان ليس بإمكان أي حرف هنا ان يخترق الجدران الى الخارج.

تونكا

I

على سور. غنّى طير. وبعد حين توارت الشمس في مكان ما وراء الأحراش. صمتَ الطير. حدثَ ذلك في المساء. أقبلت الفتيات الفلاحات يغنين عبر الحقول. أيّ تفاصيل. فهل من التفاهة ان تعلقَ تفاصيل كهذه في أعماق الإنسان كالنبات الشائك!؟ كانت هذه هي تونكا. أحياناً ترشحُ اللانهاية قطرة إثر قطرة.

كان حتى الحصان له علاقة بالأمر، الحصان الأحمر الذي ربطه آنذاك في المرعى. حدث ذلك في عام خدمته العسكرية. لم يكن مصادفة ان ذلك حدث في عام الجندية، لأن المرء لا يقف يوماً مجرداً هكذا عارياً أمام نفسه ومشاغله مثلما يقف في هذه المرحلة من الحياة، إذ تقتلع قوّة مجهولة كلّ شيء من الضلوع، فيصبح المرء أعزل وحيداً أكثر من أي وقت آخر.

لكن هل كان الأمر هكذا حقّاً؟ كلا، لقد إختلق ذلك كلّه بنفسه فيما بعد. تلك هي الأسطورة، بحيث أضاعَ القدرة على التمييز والتفريق.

كانت تونكا تعيش في بيت عمتها عندما تعرف عليها والعمة يوليا تأتي أحياناً للزيارة. هذا ماحدث بالضبط. كان يتعجب من ان المرء يمكن ان يجلس مع يوليا الى طاولة واحدة ويقدم لها فنجاناً من القهوة، لأن ذلك يشكّل عاراً، فمن المعروف آنذاك ان أيّ رجل يمكنه ان يتحدث الى العمة يوليا ثم يصطحبها الى غرفته في المساء ذاته. كانت

تدعى أيضاً الى منازل القوادات ولم تكن لها مهنة أخرى غير هذه، لكنها من ناحية أخرى، كانت ترتبط معهم بصلة قرابة، وحتى لو لم يستحسن المرء تصرفاتها التي تبدو طائشة، إلا ان أي أحد لا يستطيع منعها من ان تأخذ مكانها على الطاولة، لاسيما إنها كانت نادراً ما تأتي.

لو كانت خالته التي تزورها عمّة تونكا رجلاً لصنعت ضجّة، لأن الرجل يقرأ الجرائد أو ينتمي الى جمعية لها أهداف واضحة، أو ان صدره مليء بالكلمات الطنّانة، غير ان الخالة كانت تكتفي عادة بإطلاق تلميحات لاذعة حالما تغادر العمة يوليا. وبما ان المرء إعتاد الجلوس معها الى طاولة، فأنه يضحك معها أيضاً، إذ انها كانت فتاة ظريفة ذات إطّلاع بشؤون المدينة كإمرأة. . .

على أية حال، حتى لو إستهجن المرء تصرفاتها، فان المسافة الأخلاقية كانت معدومة تماماً، والمرء قادر على غضّ الطرف. وقد أثبتت النساء المعتقلات الشيء ذاته. كانت الأغلبية منهن عاهرات، فاستوجب ان ينقل السجن الى مكان آخر، إذ حبلت فجأة مجموعة من النساء داخل السجن إثر إقامة البنايات الجديدة حين كنّ يحملن الملاط والإسمنت الى المعتقلين الذكور الذين كانوا يعملون كبنائين. كان ممكناً أيضاً تأجير النساء للخدمة في المنازل، فيقمن بغسل الثياب وتنظيف المنازل جيداً، وكنّ مرغوبات جداً من قبل ذوي الدخل المتواضع.

كانت جدة تونكا تدعوهن أحياناً الى الزيارة أيام الغسيل، وتقدم لهن القهوة وأرغفة الخبز. وبما ان المرء يشتغل معهن في بيت واحد فانه يشاركهن الإفطار دون إمتعاض، ثم يرجعن ظهراً الى المعتقل برفقة شخص ما حسبما تقتضي التعليمات. كان من الطبيعي ان ترافقهن

تونكا عندما كانت صبية صغيرة، فتمضي الى جانبهن تتجاذب أطراف الحديث، غير شاعرة بالخجل من مجتمعها هذا، بالرغم من انها كانت على علم تام بأنهن كنّ يرتدين مناديل الشعر الخاصة وثياب السجن الرمادية.

يمكن للمرء ان يعتبر ذلك غفلةً أو جهلاً، أي عندما تستسلم الفتاة لشاب دون دراية بان حياته كلها كانت مثلومة خالية من أي تأثير، حتى لو كانت تونكا فيما بعد، وهي ذات ستة عشر عاماً، تمازح يوليا دائماً بلا وجل. يستطيع المرء ان يقول ان ذلك وقع دون ذنب مقصود أو دراية بالأثم، أم ربما إنعدمت آنذاك عاطفة الشعور الشفاف بالفضيحة والاثم؟

على المرء ان لاينسى المنزل الذي كانت له خمس نوافذ تطل على الشارع-كانت النوافذ قائمة بين البنايات الشاهقة المشيّدة حديثاً- وثمة بيت في بناية خلفية كانت تونكا تقيم فيه مع عمتها التي هي في حقيقة الأمر إبنة عمها الكبيرة ومع إبن العمة الصغير الذي هو في حقيقة الأمر إبنها غير الشرعي الذي أنجبته إثر علاقة اعتبرتها علاقة جديّة كالزواج الشرعي، إضافة الى الجدة التي لم تكن الجدة في الحقيقة، إنما شقيقتها، وزماناً كان يسكن معهم أخوها الحقيقي من أمها المتوفاة والذي فارق الحياة في سنّ مبكرة. كانوا يسكنون جميعهم في غرفة واحدة، حيث إنتصبت أمامهم النوافذ الخمس المسدولة الستائر بعفة لاتخفي وراءها سوى منزل سيء السمعة تجتمع فيه نساء البرجوازية الصغيرة الطائشات بالرجال، وكذلك النساء العاملات. كان الناس يمرون أمام المنزل بصمت متجاهلين مايحدث في داخله. ولأن لاأحد يرغب في مناكدة القوادة فانه يؤدي التحية أيضاً. كانت القوادة نفسها شخصية بدينة تطمح جاهدة الى إنتزاع الإحترام من

الآخرين ولها بنت في سنّ تونكا، كانت تبعثها الى مدرسة مرموقة لتتعلم العزف على البيانو واللغة الفرنسية، وتشتري لها ثياباً جميلة، وكذلك تحاول إبعادها بعناية عن كلّ مايجري في المنزل، لأنها كانت تعلم ان ماتقوم به هو عمل شائن. في ذلك الزمن كان يُسمح أحياناً لتونكا ان تلعب مع هذه البنت، فتدخل بعض المرّات الى باحة المنزل الذي يكون خالياً في هذه الساعات، فيبدو لها واسعاً فارهاً، هذا المنزل الذي ترك في تونكا إنطباعاً قوياً بفعل الأبهة والفخامة والترف، لم يفارقها طوال حياتها، وكان «هو» أوّلاً الذي جعله يحتل هذه المنزلة. بالمناسبة لم يكن اسمها الحقيقي تونكا، إنما عُمّدَ على الطريقة الألمانية تحت إسم إنتوني، في حين تونكا كان مجرد إختصار لإسم الدلع الجيكي تونينكا، إذ ان المرء كان يتحدث في هذه الأزقة خليطاً عجيباً من لغتين.

لكن الى أين تقود هذه الأفكار؟

وقفت تونكا آنذاك عند السور أمام باب بيت مفتوح معتم، يقع في مواجهة المدينة، وقد إرتدت حذاءً طويلاً برباط وجوارب حمراء وثياب واسعة غامقة الألوان، وتبدو عندما تتكلم وكأنها تتطلع الى القمر الذي إنتصب عارياً مكشوفاً في الحنطة المدروسة، تردّ بسليقة خجلة ثم تضحك شاعرةً كما لو انها تحت حماية القمر، في حين كانت الريح تهب رقيقة عبر الجذور التي أبقاها الحصاد وكما لو انها تبرّدُ حساءً. ذات مرّة، عندما كان راكباً الجواد، بصحبة زميله موردانسكي، الذي منح لقب البارون قبل عام، إعترف له ضاحكاً «لدي رغبة شديدة في ان أفعل شيئاً مع فتاة كهذه، لكن تلك مسألة خطيرة بالنسبة لي! إذاً عليك ان تعدني بان تكون صديقي العائلي، لكي تحميني من العاطفة الجيّاشة»، فحدثه موردانسكي، الذي

تدرب في مصنع سكّر تابع لعمه، عن مزارع البنجر، حيث تعمل مئات الفلاّحات من أمثالها في مزارع المصنع، أولئك الفلاّحات اللواتي يطعن بمحض إرادتهن كالعبيد مفتشي الغلال ومساعديهم في كلّ شيء. وحدث مرّة ان قطع حديثاً من هذا النمط مع موردانسكي، لأن ذلك قد جرح مشاعره، لكن هذا الهاجس الذي تراءى له الآن مثل ذكرى بعيدة، لم يقع له آنذاك، إنما هو الشيء ذاته الذي نما في رأسه مؤخراً مثل حرش شائك.

كان قد رآها للمرة الأولى في «الطوق»، أو الشارع الرئسي ذي العرائش الحجرية الذي يقف الضبّاط ورجال الحكومة في زواياه ويتجوّل فيه الطلاب والتجار الشباب أو الفضوليون الذين يتهادون أزواجاً أو ثلاثاً يداً بيد اثناء إستراحة النهار، كما يحدث ان يسير أحد المحامين ببطء شديد ثم يقف محيياً تاركاً التيار يجرفه، أو موظف كبير، أو تاجر مرموق، بل ولايخلو حتى من السيدات المحترمات اللواتي يمرّن بعد التبضع بهذا الشارع. هناك بالذات أصابته نظرتها غفلةً في منتصف العينين. كانت النظرة مرحة، خفيفة، مسّته برهة قصيرة كما الكرة التي تطير في وجه شخص عابر بلا قصد، ثم تبعتها إشاحة سريعة وتعبير وجه ساذج فيه تصنّع. إلتفتَ على عجل لإعتقاده ان كركرة سوف تعقب ذلك، إلا ان تونكا مرقت برأس مستقيم، مرتعبة الى حد ما. كانت برفقة فتاتين أقصر منها قامة، وكان وجهها ينطوي على قدر من التحدي والوضوح دون ان يبدو جميلاً. لم يكن في هذه الحركة الأنثوية الصغيرة المراوغة مايؤثر بشكل منتظم متناسق، إذ تجلى الفم والأنف والعينان كلّ بمفرده، لكن هذه الأعضاء بدت منسجمة مع بعضها، لاتترك للناظر من آثار جميلة سوى الصراحة اللدنة المسكوبة على جميع الأعضاء. كان غريباً ان تستقر نظرة مرحة

كهذه في قلبه مثل سهم مذيّل بخطاف، ويبدو ان الفتاة نفسها قد جُرحت بنظرتها.

بات ذلك واضحاً الآن. كانت تشتغل آنذاك في متجر كبير للأقمشة الى جانب أخريات. كانت وظيفتها مراقبة أطوال القماش وإيجاد المناسب منها عند الطلب، فكان كفّاها رطبتين دوماً إثر ملامسة شعيرات القماش الدقيقة التي تثير حساسيتها.

لاعلاقة للأمر بالحلم أو الوهم: كان وجهها صريحاً طليقاً. لكن كان هناك أيضاً أبناء صاحب المتجر، كان أحدهم يحمل شارباً كذيل السنجاب، مفتول الطرفين، ويرتدي حذاءً لمّاعاً. كانت تونكا تتحدث كثيراً عن لطافته وعن أزواج الأحذية العديدة التي يملكها وعن الطريقة التي يصفف فيها سراويله كلّ مساء، حيث يحشرها بين لوحين من الخشب ويضع فوقهما حجراً ثقيلاً لكي تبقى الثنيات حادة بارزة.

والآن، بعدما أصبح بامكان المرء ان يلمح شيئاً حقيقياً عبر الضباب، طفت إبتسامة أمّه على السطح، تلك الإبتسامة المريبة المتفرجة المليئة بالشفقة والإزدراء. كانت هذه الإبتسامة حقيقة ثابتة، إذ انها نطقت «ياإلهي! ان كلّ الناس يعلمون ان هذا المتجر. . !»

وبالرغم من ان تونكا كانت عذراء عندما تعرف عليها، فان هذه الإبتسامة بدت مبطنة أو ملتبسة بالخبث، لدرجة انها كانت تظهر أحياناً في الأحلام الكثيرة المعذبة. ربما لم يحدث شيء آخر سوى هذه الإبتسامة، لكن من الصعب عليه في هذا الوقت ان يقطع بصحة ذلك. هناك أيضاً ليلة الدخلة الأولى التي لاينتبه فيها المرء الى الإلتباسات العضوية، حيث تكون الطبيعة نفسها غير قادرة على إيجاد تفسير واضح لها. وفي الوقت الذي إحتشد فيه كلّ ذلك أمام ذاكرته مرّة أخرى، أدرك ان السماء نفسها كانت تقف أيضاً ضد تونكا.

II

كانت حماقة منه عندما جاء بتونكا لكي تعتني بجدته وتبعد عنها الوحشة. كان يومها فتياً جداً لذلك وضع خطة ماكرة. كانت حماةُ أمّه تعرف عمّة تونكا التي كانت تخيط بياضات البيوت «المحترمة»، فاستطاع ان يمهد بشكل غير مباشر الى السؤال (فيما إذا كانت العمّة تعرف فتاة شابة، وما الى ذلك...) لكن يجب على الفتاة الشابة ان تقيم مع الجدة التي كانوا ينتظرون رحيلها خلال عامين أو ثلاثة، وانها ستمنح، إضافة الى أجرة أتعابها، بعضاً من الميراث. لكن وقعت أثناء ذلك بضعة أحداث متلاحقة: مثلاً إنه ذهب معها ذات مرّة ليجلبا بعض الحاجيات، فكان في الشارع أطفال يلعبون، فجأة لمحا معاً وجه طفلة صغيرة تبكي وتتلوى كالدودة نحو كلّ الجهات، كان وجهها يشعّ ساطعاً تحت الشمس، فبدا له هذا النور الذي وقفت تحته الصبية الصغيرة مشابهاً لدائرة الحياة والموت التي قدما منها. كانت تونكا «تحبّ» الأطفال بعمق، فانحنت على الطفلة تداعبها وتواسيها. ولعلّ هذا المشهد بدا له مضحكاً، وكانت تلك آخر مرّة حاول فيها جاهداً ان يوضح لها ان هذا المشهد الذي خلفاه وراءهما ينطوي على معنى آخر مختلفاً تماماً. وبالرغم من الزوايا الكثيرة التي أراد من خلالها النفاذ إليها، فانه كان يصطدم في نهاية المطاف بالعتمة والإبهام داخل روحها. لم تكن تونكا في واقع الأمر بليدة، إلا ان هناك شيئاً ما كان يمنعها من ان تظهر الفطنة اللازمة، فشعر نحوها بتعاطف كبير للمرّة الأولى وبشكل عصيّ على التفسير.

في مناسبة أخرى سألها «كم من الوقت مضى عليك، ياآنسة، وأنت مع جدتي؟»

وحين أجابته قال لها «هكذا إذاً؟ إنه لزمن طويل حقاً، لاسيما

عندما يمضيه المرء مع إمرأة عجوز» ، فتأففت تونكا ثم قالت «أني سعيدة بوجودي معها. »

«لك الحق في ان تقولي العكس أيضاً. أني لاأستطيع ان أتصور كيف يمكن لفتاة شابة ان تشعر بالإرتياح في حالة كهذه. »

«على المرء ان يؤدي واجبه» ، أجابت تونكا وأصبح وجهها أحمر.

«يؤدي واجبه! شيء جميل، لكن الإنسان يأمل من الحياة شيئاً آخر؟ »

«نعم. »

«وهل إستطعتِ تحقيق هذا الشيء؟ »

«كلا. »

«نعم، كلا، نعم، كلا. . . » –أصبح نافد الصبر– «ماذا يعني كلّ هذا؟ إشتمينا على الأقل! »

لكنه لاحظ انها كانت تتصارع مع أجوبتها التي تنبذها من شفتيها في اللحظة الأخيرة. فجأة بدأت تثير شفقته.

«إنكِ بالكاد تستطيعين فهمي ياآنسة. أني لاأفكر بسوء إزاء جدتي، كلا ان هذا ليس من طبعي، فهي كما تعلمين عجوز مسكينة، كلا لاأفكر أبداً من هذه الزاوية، إنما أفكّر من زاويتك أنت. هذه هي طريقتي في التفكير، وبهذا المعنى فهي مجرد كتلة من البشاعة. هل فهمتينني الآن؟ »

«نعم» ، قالت الآنسة بهدوء فازداد أحمرارها عمقاً. «كنت أفهمكَ من قبل أيضاً، لكني لم أستطع التعبير عن ذلك! » فضحك هنا.

«أريد الآن ان أعرف كيف ستكون إجابتكِ، سوف أساعدك في التعبير. » قال ثم إستدار وأصبح قبالتها تماماً مما جعلها أشدّ حيرة.

«دعينا نبدأ من جديد: هل يجعلك الواجب الرتيب البارد والمنتظم ليلاً ونهاراً سعيدة حقّاً؟ هل هذا هو الواقع؟»

«أوه، لاأعرف ماذا تعني بكلامك. إني مرتاحة جداً لعملي.»

«مرتاحة جداً، جميل، لكن الإحتياجات الأخرى: أليست هذه أيضاً واجبات آنية؟ هناك أناس لايريدون من الحياة شيئاً آخر سوى العمل اليومي.»

«ماذا تعني بذلك؟»

«أعني الرغبات، الأحلام، الطموحات. هل يتركك يومٌ كهذا بلا تأثير؟»

كان في الواقع يوماً مشبعاً بعسل الربيع والإرتعاشات التي تخفق بين جدران المدينة. هنا ضحكت الآنسة.

«كلا، ان هذا لن يحدث.»

«لن يحدث؟ ربما في نفسك ميلٌ الى الغرف المعتمة والحديث الهادىء ورائحة الدواء في الزجاجات وما شابه ذلك؟ إني أرى في وجهكِ إخفاقي للمرّة الثانية»، فهزّت الآنسة رأسها وزمّت زاويتي فمها نحو الأسفل قليلاً بسخرية وخجل، أو ربما بسبب الحيرة، لكنه لم يدعها بسلام.

«أنظري إليّ أنا، فسوف ترين كم أبدو مضحكاً أمامكِ من خلال أفكاري هذه. ألا يمنحكِ هذا قدراً من الشجاعة؟ نعم، تشجعي، هكذا...»

أخيراً أفصح شيء ما عن نفسه. بطيئاً. متلعثماً. أخذ يصلح ويرمم العبارت كما لو أنه يريد ان يوضح مسألة صعبة الإدراك.

«أريد الحصول على بعض المال.»

آه، ياهذا الأمر البسيط! وياله من حمار رقيق ويالها من أبديّة

متحجرة تلك التي كمنت خلف هذه الإجابة العادية المألوفة.

ذات مرّة ذهب مع تونكا خفية في يوم إستراحتها الذي يمنح لها مرتين في الشهر، فتجولا كثيراً. كان الوقت صيفاً وفي المساء يشعر المرء بدفء الوجه واليدين، وإذا أغمض العينين إنتابه إحساس بانه يذوب ويتأرجح بلا حدود. وصفَ هذا الإحساس لتونكا، وعندما ضحكت سألها فيما إذا فهمت قصده. أوه، نعم.

ولأنه كان مرتاباً طلب منها ان تعيد، هي نفسها، وصفَ الحالة بكلماتها، لكنها لم تفعل.

إنها لم تفهم، إذاً.

أها. نعم– فجأة بدأ أحدهما يغنّي.

كلا، كلا، كلّ شيء إلا هذا– نعم نعم– ثم تزاجرا.

أخيراً أخذا يغنيان معاً على نحو وكأن أحداً ما يلقي بدليل الجريمة على الطاولة، أو يجري معاينة موضعية. كان غناءً سيئاً للغاية مأخوذاً عن أوبريت. لحسن الحظ غنّت تونكا بصوت منخفض، مما جعله يفرح في داخله. قال في نفسه (لاشكّ انها كانت في المسرح ذات يوم، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الموسيقى البائسة تشكّل بنظرها جوهر إكساء الوجد بالذهب.) لكنها قد أخذت هذه الألحان عن صاحباتها السابقات في المتجر. هل كانت هذه الأغاني تعجبها فعلاً؟ كان يشعر بالإمتعاض كلما سمع شيئاً له علاقة بالمتجر. لم تكن تعلم فيما إذا كانت هذه الموسيقى جميلة أم غبية، إلا انها كانت توقظ في نفسها الرغبة في الوقوف ذات يوم على منصة المسرح لتجعل الناس بكل ما لديها من قوّة سعداء أو تعساء منكسرين. لو تطلع المرء آنذاك في وجه تونكا الطيبة لوجده مثيراً للضحك تماماً.

أصبح مزاجه عكراً ثقيلاً عندما لاحظ ان غناءه إنخفض وتحوّل الى

دندنة. صمتت تونكا بعدما شعرت بعدم جدوى الغناء. سارا الى جنب بعضهما صامتين، فتوقفت تونكا ثم قالت «ليس هذا ماكنت أغنيه بالغناء!» ولمّا ندّت عن عينيه إشارة رضىً صغيرة بدأت تغني بهدوء من جديد. كانت هذه المرّة أغان شعبية من بلدها.

سارا على مهل بلا هدف، وبدت تصرفاتهما حزينة مثل الفراشات البيضاء تحت ضياء الشمس. هنا أصبحت تونكا دفعة واحدة صاحبة الحق.

إنه هو الذي لم يكن يحسن التعبير عمّا يعتمر في داخله، بينما تونكا التي لا تستخدم اللغة العادية، إنما لغة كليّة، قد كُتبَ عليها ان تعاني الكثير، لأن هناك من ينظر إليها باعتبارها غبية بليدة الإحساس. آنذاك إتضح له السبب الذي جعل تلك الأغاني تخطر في ذهنها. تراءت له وحيدة منقطعة، وإذا لم يقف الى جانبها فمن سيكون قادراً على فهمها؟ بعد حين غنّى الأثنان معاً. كانت تقرأ النص الأجنبي ثم تترجمه له. وضع يده في يدها وأخذا يغنيان كالأطفال. وكلّما توقفا برهة ليجذبا نفساً، تحلّ لحظة صمت يطبق فيها الغروب على الطريق. حتى لو كان كلّ مافعلاه مجرد حماقة، فان المساء كان متوحداً مع خلجاتهما.

ذات مرّة جلسا أيضاً عند حافة الغابة. كان يتطلع إليها عبر شقيّ جفنيه دون ان يتكلم، مسترسلاً في أفكاره. شعرت تونكا بالرعب، خاشيةً من ان تكون قد جرحته ثانية، فارتفع تنفسها مرّات متتالية، تبحثُ عن مفردات مناسبة، غير ان خجلها منع مفرداتها كلها من الظهور. مضى عليهما وقت طويل لم يسمعا فيه سوى الحفيف المتأسي لأصوات الغابة التي كانت ترتفع بين آونة وأخرى ثم تخفت من جديد. مرقت فراشة بنيّة اللون أمامهما وحطّت فوق زهرة طويلة

الساق، فتمايلت الزهرة يميناً وشمالاً ثم سكنت حركتها دفعة واحدة كالحديث المقطوع. كانت تونكا تضغط بأصابعها على الطحلب الذي جلسا فوقه، ثم تبدأ عيدانه الرقيقة بالإنتصاب من جديد واحداً تلو الآخر بإنتظام دوريّ، فتنمحي آثار اليد. بدا ذلك كمن أرادَ البكاء، لكنه لايعرف السبب. لو ان تونكا تعلمت التفكير على طريقة هذا الذي يرافقها، لشعرت بان الطبيعة كلها قائمة على جملة من التفاصيل التافهة اللامرئية التي تحيا حزينة ومنفصلة عن بعضها البعض مثل النجوم في الليل. هذه الطبيعة الجميلة: تقدمت نحلةٌ صغيرة من قدمه وأخذت تحوم حولها برأسها الذي يشبه الفانوس. كان ينظر لحظة الى النحلة وأخرى الى قدمه التي تمددت عريضة وسوداء معوجة على حافة الدرب البنّي.

كانت تونكا تتوجس دائماً من ان يقف أمامها ذات يوم رجلٌ ليس بمقدورها التخلص منه. كان كلّ ماروته لها صاحباتها الخبيرات في المتجر يتلخص فيما يسببه الحبّ من طيش وملل، فكان يغضبها ان ترى رجلاً يحاول الإقتراب منها وينقلب الى شخص ناعم رقيق حالما يلقي بأولى كلماته وراءه. أمّا الآن فان الطريقة التي تنظر بها الى مرافقها جعلتها دفعة واحدة تشعر بوخزةً مؤلمة. لم تكن حتى ذلك الوقت قد إختلطت وحدها برجل، لأن العلاقات آنذاك كانت مختلفة تماماً.

أسند كوعيه الى الخلف وألقى برأسه على صدره، فتطلعت تونكا الى عينيه بجفاء وخوف الى حد ما، ثم تشكلت إبتسامة عجيبة. كان يغمض عيناً ويصوّب الأخرى نحو الأسفل على إمتداد جسده. لاشكّ انه أدرك كم قبيحاً كان موضع الحذاء، وتراءى له الإستلقاء قرب تونكا في طرف الغابة خالياً من المعنى. إلا ان ذلك لم يغيّر من واقع الأمر شيئاً، إذ ان كلّ جزئية كانت قبيحة بمفردها وجميلة كالسعادة الغامرة إذا ما

إختلطت بالجزئيات الأخرى. إعتدلت تونكا بهدوء وأصبح جبينها ساخناً وأخذ قلبها يخفق بعنف. لم تفهم مافكّر فيه، لكنها قرأت كلّ شيء في عينيه وقبضت على نفسها متلبسة بالرغبة في ان تضع رأسه بين ذراعيها ثم تغمض عينيه. قالت له «لقد حان وقت الذهاب، وإلا فسوف يسقط الظلام.»

قال لها وهما في طريق العودة «من المؤكد انكِ شعرت بالضجر، لكن يجب ان تتعودي على نفسيتي»، ثم تناول ذراعها بشكل تلقائي لعسر الرؤية، وحاول في الوقت ذاته ان يجد تبريراً لصمته ومن ثمة لأفكاره. لم تستوعب ما تحدث عنه، لكنها حدست المعنى بطريقتها الخاصة ومن خلال مفرداته التي اخترقت الضباب بجديّة صارمة. وعندما إعتذر لها حتى عن الجديّة التي حملتها عباراته، وقعت في حيرة ولم تستطع جواباً لا من بعيد ولا من قريب، ولم تجد لدى مريم العذراء سوى إجابة واحدة: ان تضم ذراعيها إليه أكثر فاكثر، على الرغم من انها شعرت بخجل رهيب، فتحسس يدها. «أعتقد أننا نستطيع تحمّل بعضنا، تونكا، هل فهمتينني؟» فأجابته بعد لحظة صمت «ليس من المهم ان أفهم غرضك. إني على أية حال لاأستطيع الإجابة، لكني أحبّ ان أراك جديّاً هكذا.»

كانت هذه بالتأكيد مجرد معايشات حياتية صغيرة، لكن المسألة الغريبة هنا هي ان هذه المعايشات حصلت للمرّة الثانية في حياة تونكا. كانت المعايشات في الواقع موجودة دائماً، لكن الأغرب من ذلك هو انها باتت تعنى هذه المرّة شيئاً آخر مختلفاً ومناقضاً لما كانت تعنيه في السابق.

هكذا بقيت تونكا سهلة وشفافة لدرجة ان المرء يستطيع الإدعاء ان مسّاً من الهلوسة أصابه فأتاح له رؤية الأشياء الخارقة.

III

وقع بعد ذلك حدث جسيم. توفيت جدته قبل الموعد المناسب. لكن الحوادث هي دائماً اللازمان واللامكان، حيث يوضع المرء في مكان خاطيء

ليتحقق نسيانه بعد ذلك وهو في حالة الغيبوبة كما لو انه شيء مهجور لايلتقطه أحد.

ما حدث فيما بعد، كان يحدث آلاف المرّات في العالم، إلا انه في حالة تونكا أصبح أمراً عصيّاً على الإدراك.

حضر الطبيب وتجّار الجثث ثم كُتبت شهادة الوفاة ودُفنت الجدة الكبيرة، فإنتظمت كلّ حلقة في الأخرى عبر نظام دقيق مثلما يجب ان يكون عليه بالنسبة الى عائلة محترمة. وتمت تسوية الميراث، فشعر البعض بالفرح لأنه لم يشارك في هذا الموضوع. جرى كلّ شيء بانتظام، إلا نقطة واحدة في الميراث أثارت الإهتمام، وهي كيف يتم إرضاء تونكا ذات اللقب الرائع، الجيكي الأصل والذي يعني «إنه غنّى» أو «إنه مرّ عبر الحقل». كان هناك عقد عمل تتسلم الآنسة بموجبه مبلغاً معيّناً من الميراث بعد كلّ عام من الخدمة، إضافة الى راتبها الشهري الذي كان قليلاً جداً. ولأنهم وضعوا في ذهنهم رحلة عذاب طويلة ستقطعها الجدّة، وصعوبات العناية المترتبة جرّاء ذلك، فقد ربطوا الأجر الى سلّم بطيء التصاعد، بدا ضئيلاً جداً في نظر الفتى، لأنه كان يحسب الشهور التي ضحت بها تونكا من حياتها حسابَ الدقائق. كان حاضراً ساعتها عندما رتّب هاينست الحساب معها، فتظاهر بقراءة كتاب —مقتطفات من يوميات نوفالس— لكنه في الحقيقة كان يتابع مايجري باهتمام بالغ، فشعر بالخجل عندما نطق «عمّه» هاينست بالمبلغ الإجمالي. حتى ان هاينست نفسه شعر على نحو

مشابه، فبدأ يفصّل للآنسة أحكام وقواعد العقد المتفق عليه. كانت تونكا تصغي بانتباه وبشفتين محكمتي الإطباق، فمنحت الجديّة التي تابعت بها الحساب وجهها الفتي تعبيراً يؤثر في القلب.

«مضبوط هكذا؟» قال العمّ ووضع الأوراق النقدية على الطاولة. بدت وكأنها ليس لها أيّ معرفة أو علم بشيء، فاستلت حقيبتها الصغيرة من تحت ثيابها ثم طوت الأوراق النقدية ودستها في داخلها، ولأنها لفّت الأوراق مرّات عديدة، فقد صنعت، على قلّتها، حزمةً كبيرة من الصعب حشرها، فبقيت راقدة مثل الورم في المحفظة التي إنتفخت تحت ثوبها.

والآن فان لدى الآنسة سؤال واحد:

«متى أستطيع الذهاب؟»

«نعم» ، قال العمّ موضحاً، «سوف يستغرق ذلك بضعة أيام الى ان ننتهي من فضّ التركة، فحتى ذلك الحين يمكنك البقاء هنا. لكن بامكانك الذهاب قبل ذلك ان كنت راغبة، فنحن بالطبع لم نعد بحاجة إليك بعد الآن.»

قالت الآنسة «شكراً» ، وذهبت الى غرفتها. في تلك الأثناء بلغَ الآخرون مرحلة توزيع الحاجيات اليومية، وحينما سألهم فيما إذا كان بالإمكان إعطاء الآنسة شيئاً ذا قيمة كتذكار على الأقل، تحوّلوا دفعة واحدة الى ذئاب تفترس صاحباً لها سقط وتهيّج بعضها بعضاً.

«لقد خصصنا لهذه المسألة كتاب الصلوات الكبير الذي إحتفظت به الجدّة شخصيّاً.»

لمح ياقة من الفرو موضوعة على الطاولة فرفعها:

«نعم. لابأس. لكن أي شيء عمليّ سيجعلها بلاشكّ أكثر فرحاً. فما رأيكم بهذا على سبيل المثال؟»

«هذا لإيمي» -إيمي هي إبنة عمّه- «كيف تفكّر أنت في هذه المواضيع؟ إنه فراء فاخر!» فضحك وأجاب:

«من قال ان على المرء ان يهبَ الفتيات الفقيرات حاجة لاتصلح إلا للروح وحدها؟»

«دع ذلك الأمر نرتبه فيما بيننا»، قالت الأمّ. ولأنها لم ترد ان تظلمه تماماً فقد تابعت حديثها «إنك لاتفقه هذه المسائل. سوف يتم إقناعها بطريقة ما...» ثم عزلت بغضب وسخاء بضعة مناديل جيب وثياب قصيرة وقمصان المرأة العجوز للآنسة، بالإضافة الى فستان أسود بمنديل جديد. «هكذا. والآن كفى. ثم ان الفتاة نفسها لم تبذل جهداً لكي تكون موضع تقدير، بل انها لم تكن رقيقة المشاعر، ولم تظهر دمعة واحدة بعد رحيل الجدّة ولا حتى في مراسيم التشييع. إذاً، أرجوك كنْ مسالماً وكفى!»

«هناك بشر لايبكون إلا بصعوبة. وهذا قطعاً ليس بدليل»، أجاب الإبن، لا لإعتقاده ان عليه ان يقول شيئاً مهماً، إنما لأن طلاقة الحديث أغرته.

قالت الأمّ «أرجوك...؟ ألا تشعر ان ملاحظاتك ليست في محلها؟»

فسكت الإبن بعد الزجر ليس بسبب الحياء، بل بسبب الفرح، لأن تونكا لم تذرف الدمع على الجدّة.

تحدث أقرباؤه بحيوية وفوضى، فلاحظَ كيف انّ كلّ واحد منهم إستطاع الإحتفاظ بمصلحته الشخصية بطريقة بارعة. لم يستخدموا إسلوباً جميلاً، بل تحدثوا بخفة مظهرين جرأة كبيرة في الإستطراد والإستفاضة، وفي الأخير حصل كلّ واحد منهم على ما يريد. لم تكن القدرة على الحديث بالنسبة إليهم مجرد واسطة لنقل الأفكار، بل رأس

مال متمثل في حيلة فاتنة مدهشة. وبينما كان يقف قرب الطاولة حاملاً الحاجيات التي ورثها خطر في ذهنه بيت شعر:

«لقد أهداه أبولو موهبة الإنشاد / وسحر الغناء»

لاحظ للمرّة الأولى ان هذه كانت الهدية الحقيقية. لكن كم كانت تونكا صامتة! لاتستطيع الكلام ولا البكاء.

هل يمكن إعتبار ذلك الشيء الذي لايبوح به أحد، الشيء الذي يختفي في أعماق البشر كلّهم، والذي هو في الآن ذاته الخطُّ الرقيق المحفور على ألواح تاريخ البشرية، هذا العمل، هذا الإنسان، وهذه ندف الثلج الرقيقة المتساقطة من ذاتها في منتصف يوم صيفيّ، حقيقةً أم وهماً؟ خيراً أم شيئاً تافهاً أم شرّاً؟ هنا يشعر المرء بان العبارات باتت ترتطم بحدود لاإستقرار لها، فخرج دون كلام لكي يبلغ تونكا انه سيتدبر أمرها.

إلتقى بالآنسة تونكا وهي ترتب حاجياتها. كانت هناك علبة كارتون فوق المقعد وعلبتان على الأرض، أحداهما مربوطة بحبل، وبدا ان العلبتين لم تتسعا لإستيعاب كلّ هذا الثراء المتناثر، فوقفت الآنسة تتدارس الأمر مع نفسها، تُخرج قطعة لتضعها في موضع آخر: كانت مناديل جيب وأحذية وأدوات خياطة، تحاول ترتيبها حسب أحجامها، إلا أنها بالرغم من تواضع ملكيتها، لم تستطع حشرها كلّها، لأن حقائبها كانت أشد تواضعاً.

كان باب حجرتها مفتوحاً، فأخذ يراقبها دون ان تشعر به، وعندما لمحته إحمرت من الخجل ووقفت بسرعة أمام الصناديق المفتوحة.

«هل تريدين مغادرتنا؟» سألها وشعر بفرح خفي لأنه أوقعها في حيرة. «ماذا ستفعلين بعد ذلك؟»

«سأرحل الى بيت عمتي.»

«وهل تنوين البقاء هناك؟»

فهزّت الآنسة تونكا كتفيها. «سأسعى من اجل العثور على شيء ما.»

«ألا تضايقك عمتك؟»

«سأتدبر أمري بضعة أشهر، بعدها سأحاول إيجاد عمل.»

«لكنك ستفقدين مدخراتك القليلة في ذلك الحين؟»

«ماالذي عليّ ان أفعله؟»

«وإنْ لم تعثري على عمل بهذه السرعة؟»

«سأكون قادرة على تحمل اللوم كلّ وقت.»

«ماذا؟ تتحملين اللوم؟»

«ولمَ لا؟ طالما لاأكسب مالاً. كان الأمر هكذا عندما إشتغلت في المتجر. كنت أتقاضى القليل، ولم يكن بوسعي ان أفعل أكثر من ذلك، إلا ان عمتي لم تقل شيئاً، فقط عندما تكون غاضبة، فتكثر حينئذ من الحديث والعتاب.»

«لهذا السبب قبلتِ الوظيفة عندنا؟»

«نعم.»

«إسمعي!» قال فجأة، «يجب ان لاترجعي الى عمتك. سوف تجدين عملاً ما. سأحاول تدبير ذلك.»

لم تقل لا أو نعم ولم تشكره أيضاً. بعدما غادر الغرفة، قامت بتفريغ أمتعتها من الصناديق ببطء وأعادتها الى أماكنها. بدت شديدة الاحمرار عاجزة عن تنظيم أفكارها، تتطلع ساهمة وهي تحمل حاجة في يدها، وفجأة شعرت ان هذا هو الحبّ.

بعدما دخل الى غرفته – كانت يوميات نوفالس لم تزل على الطاولة– باغته الإحساس بالمسؤولية الكبيرة التي ألقاها على كاهله. لقد

إستجدت حالة غير متوقعة من شأنها ان تحدد مسار حياته، بالرغم من انها لم تكن تعنيه كفايةً. ربما إنتابه شكٌ في تلك اللحظة التي قبلت فيها تونكا عرضه ببساطة. هنا سأل نفسه: «لماذا تقدمت إليها بهذا العرض؟» إلا انه لم يستطع الإجابة على السؤال ولا معرفة الدافع الذي جعلها توافق، فإرتسمت حيرته ذاتها على وجهها أيضاً. بدت هذه الحالة وحشية تماماً في غرابتها، فتخيّل نفسه وكأنه إندفع متسرعاً وهو في حالة حلمية لكي يلتقط شيئاً ما، لكنه لم يمسك إلا بالفراغ. تحدث مع تونكا مرّة ثانية، لأنه لايريد ان يبدو سيء الطوية، فحدثها عن حريّة الحركة وعن القيم الروحية وعن الطموح والأهداف وعن النفور من أبراج الحمائم في الريف الساكن الجميل، وعن النساء المهمّات اللواتي ينتظرن– تحدث كما يتحدث أي رجل شاب يطالب بالكثير، لكنه مازال غراً، قليل التجربة. عندما لمح رجفة في عينيّ تونكا شعر بألم، فتوسل بها وهو تحت تأثير الخوف من إيذائها الذي سببه خوفها منه: «أرجوكِ، لاتفهميني خطأً!»

«كلا. إني أفهم ذلكَ.» كانت تلك هي الإجابة الوحيدة التي أطلقتها تونكا.

IV

صرّح أحد ما «إنها مجرد إمرأة عادية من متجر القماش!» لكن ماذا يعني هذا الكلام؟ فالنساء الأخريات أيضاً لم يتعلمن ولم يدرسن. ان هذا الكلام يهدف الى إلحاق لطخة عار بطرف الثوب النظيف، كعلامة لايمكن التخلص منها. على المرء ان يتحلّى بقدر من المبادىء وان يكون له موقف إجتماعي ملتزم. لكن الإنسان، عادة، غير جدير بالثقة. وكيف بدت النساء الجديرات بالثقة اللواتي يحملن هذه

الصفات؟ بإمكانه ان يقرّ بالإحتمال القائل ان أمّه تخاف من رؤية فراغ حياتها يتكرر فيه ثانية. إنها لم تحسن الإختيار بفخر وإعتزاز كاملين، فزوجها كان ضابطاً في الجيش، وديعاً وضعيف الشخصية في الوقت ذاته، لذلك فهي تريد إصلاح حياتها من خلال إبنها. لقد ناضلت كثيراً من أجل هذه الغاية، وانه، من حيث المبدأ، متفق مع كبريائها. لكن لماذا لم تخلّف الأمّ أي أثر في الإبن؟ كان الواجب يشكّل جوهر حياتها التي إتخذت محتوى محدداً بعد مرض الأب، فوقفت بروح عالية الى جانب الرجل الذي دبّ فيه التبلدُ شيئاً فشيئاً، وقد فعلت ذلك تماماً مثل حامية جنود صغيرة تذود عن موقعها أمام قوّة شديدة البأس. حتى ذلك الوقت لم تتمكن من التقدم أو التراجع في علاقتها مع العم هايسنت. في الواقع لم يكن العمّ قريبهم، إنما صديق الزوجين معاً. إنه كالأعمام الذين يجدهم الأطفال أمامهم عندما يكبرون. كان مسؤولاً مالياً كبيراً وكاتباً المانياً، يقرأه الناس بكثرة، وتنشر أعماله في طبعات كبيرة، فإستطاع ان يمنح الأمّ شيئاً من المعرفة والخبرة بشؤون العالم، تسليها في لحظات عوزها الروحي. كان قارئاً للتاريخ وأفكاره مصممة بطريقة تبدو من خلالها عظيمةً كلّما أمعنت في خوائها وفراغها، وذلك بفعل إمتدادها الواسع الذي يشمل آلاف الأعوام، وكذلك تناولها للمسائل الكبرى. كان هذا الرجل يبذل قدراً من التضحية لإرضاء الوالدة، مظهراً لها إعجاباً منقطع النظير، لأسباب لم تكن واضحة للإبن، ربما لأن الأم، بصفتها إبنة ضابط، كانت مشبعة بتصورات أخلاقية شريفة ذات بريق حيويّ، ينسجم مع شخصيتها التي تنطوي على صلابة في المواقف التي يحتاجها هايسنت كحالات مثالية لمؤلفاته، وذلك في الوقت الذي يشعر فيه بان تلك السلاسة المنسابة في خطبه وموهبته القصصية تعود أصلاً الى كونها معدومة في

صميم نفسه. وبما انه لايريد بطبيعة الحال الإعتراف بان هذا الخطأ كامن فيه هو نفسه، تراهُ يهرب نحو الشمولية والنظرة الضيقة الى العالم، متوسعاً في عرضهما، معتبراً ذلك قدرَ العقلية الثرية التي تحتاج الى التجلّد والى جرأة الآخرين الغرباء، لكي تنضج وتكتمل لدرجة تبدو من خلالها هذه المرأة وكأنها لاتعاني نقصاً فيما يتعلق بالترفع الإنساني المؤلم. كانا يقنّعان علاقتهما بمهارة، حتى عن بعضهما، تحت ذريعة الصداقة الفكرية، لكن ذلك لم يتيسر لهما دائماً، وفي بعض الأحيان ينتابهما الهلع بسبب التخاذل «الهايسنتي» الذي يدفع بهما الى مناطق خطرة، فيجعلهما قلقين، يوشكان على السقوط أو على الإرتفاع بصبر ومعاناة الى القمة من جديد. غير ان مرض الزوج أهدى لروحيهما موضع إستقرار، فاصبحا يتوقان إليه الآن بعد ان نمت علاقتهما وبلغت ما كان ينقصها.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت حرم البعل محصنة بالواجب، فأخذت تؤدي، وبهمة كبيرة، الواجبات كلّها التي أخلّت بها وأهملتها أخلاقياً عبر أفكارها ومشاعرها، فصار نمط تفكيرها يتحصن خلف قاعدة بسيطة، تحوّلت الآن الى قاعدة راسخة، حمتها من خطر التأرجح بين عظمة العاطفة والشهوة وعظمة الإخلاص والوفاء الزوجي غير المريحين.

إذاً هكذا يبدو الناس الثقات الذين يظهرون الثقة عبر تجليات النفس والطبيعة الأخلاقية. إذا ما وردت في إحدى روايات هايسنت قصّة حبّ من النظرة الأولى، مثلاً: أحدٌ ما يتعقب أحداً آخر- كالحيوان الذي يعرف أين يرتوي وأين لايحق له ذلك - فيبدو لهما كالمخلوق الذي يعيش في وضع بدائي، مجرداً من الأخلاق. لكن الإبن الذي كان يشعر بالتعاطف العميق مع الأب الطيّب طيبة الحيوان

الفطرية، ويكافح هايسنت وأمّه معاً في جميع الشؤون الحياتية مثلما يُكافح الطاعون، أتاح لهذين الشخصين ان يدفعا به الى الزاوية المعاكسة لفرص الحياة المنسجمة مع روح العصر.

لقد درسَ صاحبُ المواهب المتعددة الكيمياءَ وجعلَ نفسه أصمّاً أمام جميع المسائل التي لاتُحل بشكل واضح. نعم، كان خصماً عنيداً كارهاً الى حدٍّ ما لهذه المناقشات والمجادلات، وفتى متعصباً لروح الهندسة الحديثة الباردة الفنطازية الجافة والمتوترة كتوتر القوس. إنه مع تحطيم المشاعر وضد الشعر ودماثة الخلق والفضيلة والبساطة. ان عصافير الغناء تحتاج الى غصن تقف عليه والغصن يحتاج الى شجرة والشجرة الى تربة بنيّة مخبولة بالدمن، لكنه حلّق طائراً وبات معلقاً في الفضاء أثناء تلك الأزمان.

سوف يأتي لامحالة زمنٌ آخر يعقب هذا الزمن الذي خرّب وهدم أكثر مما عمّر وبنى، زمنٌ له شروط ومقدمات جديدة، نقوم نحن أنفسنا بخلقها عبر الزهد والتقشف، وبعد ذلك سوف يدرك المرء الطريقة التي علينا ان نتبعها في التفكير. كان ينسج أفكاره على هذا المنوال. كان مطلوباً منه في ذلك الوقت ان يكون صلباً متجلداً كما لو انه في رحلة إستكشافية. إستطاع ان يجلب بإندفاعه وحماسته إنتباه المدرسين، إذ انه وضع تصورات وأفكاراً لإختراعات جديدة، وفي حالة تحققها، فانه سيتفرغ عاماً أو عامين لإنجاز الدكتوراه، وبعد ذلك فانه سيعتلي الأفق الوضّاء بثقة حتمية لاتقهر، على خلاف الشبّان الذين ينظرون الى مستقبلهم وكأنه خليط من البريق والقلق.

إنه يحبّ تونكا، ليس لأنها هيجت روحه، بل لأنها غسلت هذه الروح بنقاء صاف كأنه الماء العذب، فأحبها أكثر مما كان يتصور. لكنّ إستطلاعات أمّه الحذرة أحياناً، هذه الأم التي كانت تتجسس

بدقة مرهفة نتيجة لشعورها بالخطر المحدق وعدم قدرتها على مواجهة تونكا ومصارحتها بالأمر، لعدم توفر الأدلة الكافية، دفعته الى الإسراع في عمله، فأنهى إمتحاناته وغادر منزل الوالدين.

V

قاده طريقه الى مدينة ألمانية كبيرة، مصطحباً تونكا معه، لأنه خشي إذا ما تركها في مدينة أمِّه وعمتها فانه بذلك يسلمها الى الأعداء.

حزمت تونكا إمتعتها وغادرت البلدة دون غصّة في القلب، هكذا ببداهة مثلما تنسحب الريح أمام الشمس والمطر أمام الريح.

تسلمت في المدينة الجديدة عملاً في متجر، إتقنته سريعاً فاستحقت المديح. لكن لماذا كانوا يعطونها راتباً ضئيلاً، ولمَ لاتسألهم عن رفع أجرها، برغم انه حقّ وقد حجب عنها، ولأن بدونه يكون العمل ممكناً أيضاً؟

كانت تأخذ ببساطة كلّ ما تحتاجه من صاحبها الذي كان يلقي عليها خطباً، ليس بسبب موضوع الأجر، إنما لأن تواضعها لم يعد يناسبه، ولأنه يريد منها ان تصبح حاذقة يقظة.

«لماذا لاتطلبين منه أجراً أعلى؟»

«لا أستطيع ذلك.»

«لاتستطيعين ذلك، وتدعين أنك تأتين للمساعدة في كلّ مكان فيه نقص في الأيدي العاملة؟»

«نعم.»

«طيّب، لماذا إذاً؟»

أثناء هذه المجادلات يركب تونكا مسٌّ من العناد. إنها لاتعترض، بل تنغلق تماماً أمام هذه الأفكار.

هتف فيها أخيراً:

«أرجوكِ! ان هذا تناقض واضح. أرجوكِ، يجب ان توضحي لي حالاً، لماذا. . . ؟»

لكن دون فائدة. . .

«تونكا، سأغضب إن بقيتِ على هذه الحال!»

بعدما يلّوح بسوطه هذا تبدأ العربة الصغيرة لحمير التواضع والعناد بالتحرك، فينجلي شيء ما صغير، مثلاً ان خطها رديء، أو انها تخشى الوقوع في الأخطاء الإملائية، الأمر الذي أخفته عنه الى هذا اليوم بفعل الكبرياء، مما جعل الخوف نفسه يهتزّ الآن حول فمها اللطيف الذي تكوّر على هيئة إبتسامة قزحية حالما شعرت ان عيوبها هذه لم تؤخذ مأخذ السوء، بل بالعكس تماماً، إنه يحب هذه الهفوات مثلما يحب ظفر إصبعها الذي شوهه العمل. سمح لها بالذهاب الى المدرسة المسائية، وفرح بالخط التجاري الذي تعلمته هناك. كان يحب حتى الأحكام المشوهة حول هذا الموضوع أو ذاك التي تأتي بها من هناك. كانت تحمل هذه الأحكام في فمها الى البيت دون ان تمضغها. إنه لاشكّ أمر جميل ينمّ عن طبيعة نبيلة حين تبدو عاجزة عن مقاومة هذه الأمور التافهة، لكنها، من ناحية أخرى، ترفض بالغريزة ان تتبناها. أصبحت هذه الثقة التي ترفض بها كلّ ماهو وضيع وفظّ محطّ الإعجاب، لكن كان ينقصها في الوقت نفسه الطموح الذاتي لغرض الإرتقاء الى مستوى أرفع من مستواها الحاليّ، فبقيت هكذا نقية غير مشذبة كالطبيعة، لأن ليس من السهل ان يحب المرء البساطة. أحياناً تباغته بأفكار يفترض ان تكون بعيدة عن مداركها، مثلاً عن علم الكيمياء. عندما يفرغ من التوترات التي تسببها مشاغله، يتحدث إليها، محاوراً نفسه أكثر مما هو مخاطباً إيّاها، تراها تفهم هذه الفكرة

أو تلك، إذ ان شقيق أمّها الذي أقام معهم في البيت الصغير خلف المبغى كان طالباً. «والآن؟» توفي فور الإنتهاء من الإمتحانات.

«ومن خلاله أستطعتِ ملاحظة هذه الأشياء؟»

قالت تونكا:

«كنتُ صغيرة آنذاك، فكان يطلب منّي دائماً ان أسأله بعدما ينتهي من التحضير. لكني لم أكن أفهم كلمة واحدة، فكان يكتب لي المسائل على قصاصة ورق» –كفى. كان ذلك يشبه الصخور الجميلة الموضوعة في صندوق أكثر من عشرة أعوام، لكن لاأحد يعرف أسماءها، والآن أصبح الأمر مشابهاً لتلك الحالة. عندما ينهمك في دراسته، تجلس تونكا بالقرب منه صامتةً، وتلك هي جلّ سعادتها. كانت كالطبيعة التي تتحول الى روح متجلية، لكنها لم ترغب في ان تصبح روحاً، بل ارادت ان تمنحه الحبّ وحده وتنتمي إليه بغريزة لاقرارة لها، وكأنها واحدة من الكائنات الكثيرة التي تلجأ الى الإنسان.

دخلت علاقته معها آنذاك في حالة من الإضطراب الغريب والبعيد عن الحبّ وعن الطيش في آن. كانا يظهران وهما في بلدهما تفاهماً عميقاً واضحاً وخالياً من الإغراء والتضليل، يلتقيان في المساء ثم يتجولان معاً ويتحدثان عن معايشاتهما اليومية وعن المنغصات الصغيرة، وبدا ذلك أمراً ممتعاً كالخبز والملح.

أخيراً إستأجر غرفة، لأن هذه مسألة لابد منها، ولأن المرء لايستطيع شتاءً التجوّل في الشوارع ساعات طويلة. في هذه الغرفة قبّلا بعضهما للمرّة الأولى. حدث ذلك بشيء من التشنج، فبدت القبلة وكأنها تأكيد أكثر مما هي متعة. وبفعل التوتر أصبحت شفتا تونكا خشنتين متصلبتين. أكّدا في تلك اللحظة انهما سوف «يرتبطان الى الأبد». تذكّر بوضوح مثير للسخرية، كالحماقات التي أرتكبت

ولاتريد ان تمحى، إستطراداته الصبيانية التي أنبأته بان هذا الشي لابد ان يحدث ذات يوم، لأن هناك أثنين من البشر ينفتح أحدهما على الآخر بشكل حقيقي. هكذا كانا يتأرجحان بين النظرية والإحساس.

توسلت به تونكا مرّات عديدة لكي يؤجل الأمر بضعة أيام، إلا انه سألها شاعراً بالإهانة، فيما إذا ستكون تضحيتها كبيرة. أخيراً إتفقا على يوم محدد.

جاءت تونكا مرتدية سترتها الطحلبية الإخضرار وقبعتها الزرقاء ذات الشرائط المثنية السوداء، وقد إحمرّت وجنتاها بفعل السير المتواصل. فرشت المائدة وأعدت الشاي لكي تشغل نفسها قليلاً، متأملةً الحاجيات التي تستخدمها. ومع انه إنتظر طوال اليوم بنفاد صبر، إلا انه ظلّ محشوراً في زاوية المقعد متصلباً ومتثلجاً على نحو صبيانيّ، مكتفياً بمراقبة حركاتها. لاحظ ان تونكا لاترغب في التفكير بالأمر الحتمي الذي سوف يقع، وشعر بألم لأنه ثبّت موعداً صارماً كأنه محصّل الغرامات!

بعد فترة طويلة، خطر في ذهنه انه كان عليه ان يباغتها، أو يمازحها ويداعبها. بدت السعادة يومئذ على بعد أميال، حتى انه بات يخشى من ملامسة الطراوة التي كانت تهبّ في وجهه كالنسائم الباردة المنعشة كلّ مساء حين يلتقيان. غير ان هذا الشيء يجب ان يحدث في إحدى المرّات، لذلك فقد تشبث بهذا الوجوب. وبينما كان يتابع حركات تونكا التلقائية، تراءى له وكأن فكرته بدأت تلتف حول كعبيها مثل أنشوطة تصبح قصيرة عند كلّ إستدارة. بعدما تناولا الطعام جلسا بمحاذاة بعضهما دون ان يقولا شيئاً. حاول ان يطلق دعابة وحاولت تونكا ان تطلق ضحكة، لكنها لوت فمها كما لو ان شفتيها تشنجتا فجأة وبدت تونكا جادة مرّة أخرى. قال لها دون تمهيد «تونكا هل

أنت مستعدة؟ هل نبقى على إتفاقنا؟»

طأطأت تونكا رأسها، وبدا له ان شيئاً ما خطف أمام عينيها، غير انها لم تجب بنعم ولم تقل له أني أشتهيك، فانحنى عليها هامساً بإرتباك وبصوت خافت «هل تعلمين، في البداية سيكون كلّ شيء غير مألوف تماماً، وربما سيبدو جافاً واقعياً. فكّري جيداً، إننا لانستطيع ان. . .ربما تعلمين، إنه ليس مجرد هكذا. . اغمضي عينيك، إذاً. . . ؟»

كان الفراش ممهداً، فخطت تونكا بإتجاهه، لكنها جلست بتردد على الكرسي الى جانب الفراش.

هتف بها «. . . تونكا. . . !» فنهضت من جديد وبدأت تتحرر من ثيابها مشيحة بوجهها.

كانت هناك فكرة شائكة ظلّت عالقة بهذة اللحظة الرائعة. هل ستمنحه تونكا نفسها؟ إنه لم يتعهد لها بالحبّ، لمَ إذاً لاتحتج على موقف يلغي جميع الآمال الكبيرة؟

تصرفت بهدوء كما لو انها أخضعت لسلطة «السيد». ربما كانت ستستجيب لأي شخص آخر يطلب منها ذلك بإلحاح؟

لكن هاهي الآن تقفُ في لامهارة عريها الأول، حيث يتمدد جسدها بترف ونعومة كما لو انه ثوب ضيّق أحاط بجسدها ذي اللحم الأكثر إنسانية وفطنة من التفكير الصبياني، وتونكا التي بدت وكأنها تحاول الهرب من هذا الذي بانَ عليه الإضطراب، دسّت نفسها في الفراش بحركة عجيبة غير مألوفة وخالية من المهارة.

تذكّر فيما بعد انه لاحظ بشكل عابر ان الشيء الحميمي بقي في مكانه على المقعد الى جانب الثياب التي يعرفها جيّداً، وعندما مرّ بهذا الشيء فاحَ عطرُ الحبّ المنعش الذي كان يشعر به كلّ مرّة حين

يتطلعان الى بعضهما.

بدا متردداً ثانية، بينما كانت تونكا تضطجع في الفراش مغمضة العينين، متجهة برأسها الى الحائط وهي في حالة من الرعب الموحش اللانهائي. بعد ان شعرت به أخيراً يتمدد الى جانبها ترقرقت عيناها بالدموع، ثمّ حلّت نوبة عارمة من الرعب، نوبة من الفزع والرعب بسبب تنكرها، فتشكلت على إثرها كلمة خالية من المعنى، كلمة كانت تستغيث وتتردد متهاوية في دهليز موحش لانهائي، صارت إسماً له. وهناك، بعد برهة، تمكن من إمتلاك تونكا. لم يكن أدرك كم كان تسللها السحري إليه شجاعاً شجاعة طفولية، فاية حيلة سهلة تلك التي إبتدعتها لكي تمتلك كلّ شيء فيه كان يثير إعجابها. إن المرء في الواقع لايحتاج إلا الى الرغبة وحدها في الإنتماء الى الآخر وسوف يتحقق له مايريد.

لم يعد يتذكر أبداً كيف حدث ذلك.

VI

في صبيحة يوم واحد تحوّل كل شيء الى حزمة أشواك. كانت قد مضت أعوام على علاقتهما عندما شعرت تونكا بالحمل. لم يكن يوماً عاديّاً كالأيام الأخرى، إنما إختارت السماء يوماً إذا مابدأ بعدهُ المرء بالعد والحساب، فسيكون الحملُ قد وقع في زمن سفره وغيابه، إضافة الى ان تونكا نفسها إنتبهت الى الحمل بعد بات من الصعب تحديد بدايته على وجه الدقّة. في وضع كهذا تنشأ أفكار كثيرة تحلّق في رأس أي إنسان، لكن لا أحد هناك، لا من بعيد ولا من قريب يمكن ان يوجه له الإتهام بشكل جديّ. بعد بضعة أسابيع تدخّل القدر هذه المرّة بكل ثقله: إذ أصيبت تونكا بمرض غامض. كان مرضاً ينتقل عادة أمّا عن

طريق الجنين الى دم الأمّ، وأمّا عن طريق الأبّ مباشرة دون المرور بالطريق الملتوي الأول، مرضاً خبيثاً مستعصياً خفيّاً. وبغض النظر عن الطريق الذي سلكه، قريباً كان أم بعيداً، فانه في كلا الحالتين لم يكن متوافقاً مع التوقيت المفترض، وهذا هو الأمر المثير للحيرة حقّاً، إذ انه، حسب التقديرات البشرية، لم يكن مريضاً. إذاً، أمّا ان حدثاً غامضاً ورّطه مع تونكا، وأمّا ان تونكا نفسها إقترفت ذنباً أرضياً. بالطبع هناك إحتمالات طبيعية كثيرة نظرية، إفلاطونية، حسبما يقال- إلا ان مصداقيتها عمليّاً تعادل الصفر، أمّا الإحتمال الآخر القائل انه عمليّاً ليس والد طفل تونكا وليس السبب في مرضها كان يوازي الحقيقة القاطعة. على المرء ان يتوقف هنا لحظة لكي يدرك كم كان صعباً عليه التوصل عملياً الى هذه الحقيقة!

مثلاً إنك تأتي الى تاجر، وبدلاً من ان تفتح أفقاً يثير طمعه، تلقي عليه موعظة أخلاقية عن الأزمان والدهور وعن مايجب ان يقوم به الرجل الثري، فانه سيدرك في الحال إنك جئت لكي تسرق أمواله، وهو لم يكن مخطئاً أبداً في تقديره هذا، حتى لو أنك جئت لكي تسدي إليه نصيحة. كذلك الحال بالنسبة الى القاضي الذي لايشكّ لحظة واحدة في عدم صحة إدعاء المتهم بان دليل الإثبات الذي عُثر عليه في حوزته أخذه من «رجل مجهول». ومع ذلك فان هذا الإستثناء يمكن ان يحدث ذات مرّة. لكن العلاقات والمعاملات البشرية تعتمد بدرجة أساسية على عدم وضع الإحتمالات جميعها في نظر الإعتبار، إذ ان البعيدة منها لاتتحقق عملياً.

ومن وجهة نظرية؟

لقد هزّ الطبيب العجوز الذي جلب إليه تونكا منكبيه في البداية، وعندما بقي معه على إنفراد سأله: ممكن؟

بالتأكيد إنه ليس مستحيل الوقوع. كانت عينا الطبيب طيبتين مسكينتين، لكنه بدا وكأنه يريد القول: علينا ان لانسهب في مناقشة الموضوع، لأنه يقع دون التقديرات والحسابات الإنسانية اللازمة للإحتمال، فحتى الإنسان المثقف المتعلم يبقى في نهاية المطاف إنساناً لايتقبل أمراً غير متحمل الوقوع من ناحية طبيّة، بل يعتبر، وعن طيب خاطر أيضاً، ان ذلك حدث نتيجة خطأ بشريّ، لأن الإستثناءات في الطبيعة نادرة جداً.

كلّ ما حدث فيما بعد كان بمثابة قضية إدمان طبيّة. حلّ ضيفاً على الكثير من الأطباء، فتوصل الطبيب الثاني الى النتيجة ذاتها التي توصل إليها الطبيب الأول وفعل الثالث كما الثاني، فأخذ يساوم ويداهن ويضع مفاهيم المدارس الطبيّة في مواجهة مع بعضها البعض، والسادةُ يصغون إليه بصمت أو يبتسمون بلطف، وكأنهم يستمعون الى أحمق غبيّ غير قابل للإصلاح. بالطبع كان يعلم وهو يتحدث إليهم انه يستطيع ان يسأل أيضاً: هل الإنجاب العذري ممكن؟ وحينها لايحتاج المرء إلا ان يردّ عليه: ان هذا أمر لم يحدث قطّ، وليس هناك أية حاجة الى إصدار قانون خاص ينفي هذه الإمكانية، لأنها أصلاً غير موجودة، إذاً فيا له من ديّوث أحمق غير قابل للنصح ولايريد سوى إيهام نفسه.

ربما قال له أحد ما هذا الكلامَ في الوجه، أو انه توصل إليه بنفسه، على أية حال، يمكن لهذا الكلام ان يخطر في ذهنه، وبما ان المرء لايستطيع ان يزرر ياقته، فانه سيتدارس أولاً جميع الأوضاع الممكنة للأصابع. هكذا وقف الى جانب قناعته الذهنية شيءٌ آخر طوال الوقت: إنه وجه تونكا.

يتجول المرء في حقول الحبوب، يتحسس الهواء وطيران السنونوات،

يلمح أبراج المدينة عن بعد وكذلك الفتيات اللواتي يغنين، إلا ان المرء سوف يبقى بعيداً عن كلّ حقيقة، ويعيش في عالم لايعرف مفردة اسمها الحقيقة. هكذا إقتربت تونكا من موطن الأساطير القديمة العميقة، كان هذا هو عالم المسيح والسيدة العذراء وقاضي الصّلب بوتيوس بيلاط والأطباء يقولون يجب الإعتناء بتونكا ورعايتها إذا ما أريد لها ان تتغلب على محنتها.

VII

كان يحاول من وقت الى آخر إنتزاع الإعتراف من تونكا، وبدا في هذا المضمار رجلاً حقيقياً وليس مجرد بهلوان أخرق.

عثرت آنذاك على وظيفة في متجر كبير قبيح يقع في حيّ عماليّ، تبدأ العمل صباحاً وتنتهي منه في المساء المتأخر، ليس قبل التاسعة والنصف ـ عادة بسبب بضعة فلوس يأتي بها زبون متأخر، فلم تعد ترى الشمس قطّ. في الليل يرقدان منفصلين، إذ لا أحد كان يهب روحيهما بعضاً من الوقت، فأصبحا قلقين حتى فيما يتعلق باستمرار حياة العوز هذه، لاسيما بعد ان برزت أعراض الحمل وهما في ضائقة مالية شديدة.

لقد أنفق مدخراته كلها على الدراسة ولم يكن وقتها قادراً على كسب المال، لأن تلك مسألة صعبة التحقيق في بداية المسيرة العلمية، ولأنه إقترب تماماً من إنهاء دراسته دون ان يبلغ النهاية الحاسمة، لذلك فانه بحاجة الى آخر طاقة فيه لإنجاز قفزة الوصول الأخيرة. في هذه الحياة بدت تونكا خالية من النور ومثقلة بالحزن والقلق، تذوي ذابلة ليس على نحو جميل مثل النساء اللواتي يتفجرن فتنة وجمالاً كلما تعرضت قواهن الى التدهور، إنما ذَبلُت بشكل لامرئيّ مثل نباتات المطبخ الصغير التي تصفرّ أولاً ثم تنكمش حالما تفقد رهافة

إخضرارها. إنكمشت وجنتا تونكا فبرز الأنف غليظاً ضخماً وأصبح الفم واسعاً وتهدلت الأذنان نحو الجانبين وأصيب الجسد كلّه بالهزال، وبدلاً من اللحم الثري الممتلىء أطلّ الآن هيكل عظميّ فلاحيّ. أمّا هو فقد إستطاع بوجهه ذي التربية الراقية وخزانة ثيابه التي لم تستنفد بعد التغلبَ على الغم والهم على نحو لابأس به. كان يلاحظ، وهو برفقة تونكا، نظرات الإستهجان السريعة التي يقذفها بعض المارة. وبما انه لايخلو من الكبرياء فقد إعترف لتونكا بعجزه عن شراء ثياب جميلة لها، وأظهر لها غضبه أيضاً بسبب فقرها الذي يتحمل هو نفسه مسؤوليته، لكن، في الحقيقة، لو كانت له قدرة مالية لأهدى لها فساتين حَمْل غيمية، ومن ثمة يستجوبها حول موضوع خيانتها.

كان كلّما حاول ان ينتزع منها الإعتراف، تقوم بالإنكار. إنها لم تعد تعلم كيف حدث ذلك. وإذا ما ناشدها باسم الصداقة القديمة ان لاتمارس الكذب، تطفو على وجهها مسحةٌ من الألم والعذاب، وعندما ينتابه الغضب، تقول انها لاتكذب، فما الذي يمكن ان يفعله المرء بعد كلّ هذا؟ هل عليه ان يضربها أو يشتمها أو يهجرها وهي في هذه الحالة الرهيبة؟

إنه لم يعد ينام معها، وعندما يخضعها للتعذيب لاتعترف ولاتقرّ، ليس لسبب معيّن، إنما لأنها لم تكن قادرة على النطق بكلمة واحدة وذلك منذ اليوم الذي لمحت فيه شكوكه، وطالما عجزت إغراءات الحبّ نفسها عن التخفيف من عزلته ووحشته، بات هذا العناد السخيف التي تظهره نازعاً لأسلحة دفاعها. عليه إذاً ان يبقى صلباً مترصداً.

قرر مرّة ان يسأل أمّه عن مساعدة مالية. لكن الأب كان ملقى بين الحياة والموت منذ فترة طويلة، ولذلك فان الأموال الموجودة مرتبطة أساساً بحالته. لم يستطع التأكد من ان أمّه كانت تخشى من ان يتزوج

تونكا في الأيام القادمة، بالرغم من علمه بشعورها هذا. نعم، إنها تتخوف من عدم تحقيق الزواج الآخر، لأن تونكا تقف عثرة في الطريق. بعدما أمتدّ واتسعَ كلٌّ شيء: الدراسة والنجاح ومرض الأب ومتاعب البيت، أصبحت تونكا بشكل مباشر أو غير مباشر السبب في هذه التطورات، وإنها ليست المسبب الأول لهذه الإشكالات المشؤومة فحسب، إنما العلامة الشريرة التي حطمت المجرى الطبيعي للحياة. ومن خلال الرسائل المتبادلة وزيارات الأهل تمكن من إختراق هذه القناعة المبهمة التي لاتستند الى أي إساس سوى الشعور العائلي الناقص، لأن الإبن إرتبط «بفتاة كهذه»، وبشكل أشد عمقاً مما هو مألوف لدى الشبّان الآخرين. كان على هايسنت ان يطلق من ناحيته تحذيراً. وحين أعلن الفتى رفضه القاطع متبرماً ومنزعجاً من هذه المعتقدات الخرافية غير المعترف بها ومتذكراً تجاربة الطائشة المؤلمة، أُطلق فوراً على تونكا لقب «البنت المخلّة بالواجب» والتي لاتحترم السلام العائلي، ثم ترافقت، الى جانب الإشارات الخفية الى «الفنون الحسيّة» التي من خلالها تحاول ربطه بها، السذاجةُ الحياتية للأمهات المحترمات. عَلما من خلال الجواب الذي تسلمه الآن ان كلّ فلس يوثق من علاقته بتونكا لايخدم إلا بؤسه وتعاسته. هنا قرر ان يكتب لها من جديد ويعترف أنه الأب الشرعي لطفل تونكا.

وكردّ على رسالته جاءت أمّه شخصيّاً.

جاءت «لكي تعيد الأمور الى نصابها».

لكنها لم تطأ غرفته، كما لو أنها خشيت من تصطدم بما لايطاق، لذا طلبت مقابلته في الفندق. وعبر إحساسها بالمسؤولية تمكنت من إزاحة الإضطراب الخفيف الذي إنتابها. تحدثت عن الهمّ الكبير الذي خلقه لهما وعن خطورة الموضوع فيما يتعلق بصحة الوالد وعن قيود

الحياة ومصاعبها، تحدثت بأسلوب بالغ السذاجة، إلا ان النبرة المسامحة التي لم تفارق كلماتها لحظة واحدة جعلت مستمعها يحتفظ بقدر من الفضول المستريب، هذا المستمع الذي شعر بالضجر من حِيَلِ قلبها المكشوفة.

«إذاً» ، بدأت الأم، «من الممكن ان يتحوّل طارىء النحس هذا في الحال الى فأل حسنٍ ويكون المرء بعد ذلك» -تابعت القول- «قد نجا بنفسه بأقل الخسائر. أمّا الخطوة المطلوب إتخاذها الآن هي حماية المستقبل من خطر تكرار هذه الحوادث!» لذلك فأنها دفعت الأب الى التضحية بمبلغ معيّن بالرغم من المصاعب الكبيرة. وبهذا المبلغ سيتم -هكذا إفتتحت الأمّ عرضها بسخاء كبير- إرضاء البنت، إضافة الى متطلبات الرضيع.

وفعلاً أصيبت بالذهول عندما سألها إبنها بهدوء عن مقدار المبلغ المعروض. بعدما سمع إجابتها هزّ رأسه ببطء أشد من ذي قبل ولم يقل سوى: «غير ممكن» ، فردّت عليه متشجعة ببعض الأمل: «بل يجب ان يكون ممكناً! لاتكن أعمى القلب! الكثير من الشبّان يرتكبون حماقات مشابهة، لكنهم دائماً يقبلون النصيحة. لديك في هذا الوقت بالذات فرصة ممتازة لإنقاذ نفسك، فلا تدع هذه الفرصة تضيع منك بسبب الشعور الخاطىء بالشرف. ستكون أنت، ونحن أيضاً في نهاية المطاف، المعنيين بالأمر!»

«كيف، فرصة ممتازة؟»

«بالتأكيد، إذ ان البنت ستكون أكثر تعقلاً منكَ. سوف تقتنع بان الرجل يتحرر دائماً من هذه العلاقات حالما يأتي الطفل.»

طلب تأجيل الجواب الى يوم الغد، إذ ان فكرة ما قد توقدت في رأسه. ودفعة واحدة توحدّ أمامه كلّ شيء: أمّه والأطباء ذوي

الإبتسامة الحكيمة العاقلة وإنسياب قطار الأنفاق في الطريق الى تونكا ورجل المرور بإشاراته الواثقة التي تنظم الفوضى وشلال المدينة الهادر. كان يقف في المكان الموحش المجوف- دون ان يلحق به البلل، إلا انه كان وحيداً منعزلاً.

سأل تونكا فيما إذا ستفعل ذلك.

أجابته تونكا بنعم، لكن كم ثنائية المعنى كانت هذه النعم! نطقتها هكذا بتعقل مثلما تنبأت الأم، غير ان نوبة إضطراب خفيفة تأرجحت حول الفم الذي قالها.

أبلغ أمّه في اليوم التالي، مباشرة في الوجه ومن دون ان تسأله، إنه ربما ليس والد طفل تونكا وان تونكا أصيبت بمرض خبيث، وبالرغم من كلّ ذلك فانه يفضل ان يصاب هو شخصياً بالمرض وان يعتبر نفسه أبّاً للطفل بدلاً من ان يتخلى عن تونكا.

إبتسمت أمّه بإستسلام وعجز أمام هذا العمى الرهيب ونظرت إليه بحنان ثم خرجت، فأدرك ان أمّه أخذت جرعة جديدة وقويّة ستحمي بها دمها ولحمها من العار، وهكذا أصبح حليفاً لعدوّ كان مرهوب الجانب.

VIII

أخيراً فقدت تونكا وظيفتها. كان الى حدٍّ ما قلقاً لأن هذه المصيبة لم تقع قبل فترة طويلة. كان التاجر الذي خدمت عنده تونكا رجلاً قصيراً قميئاً، لكنه بدا لهما في زمن المحنة وكأنه سلطان خارق الجبروت. تشاوروا بضعة أسابيع، إذ كان عليه ان يعرف جميع التفاصيل، لأنه رجل محترم، لايمكن ان تمسه شائبة عن طريق شخص يقع في ورطة. ومع ذلك فانه لم يلحظ شيئاً، الحمد لله، إنه لم

يلحظ شيئاً بعد.

ذات يوم دُعيت تونكا الى المكتب وتمّ إستجوابها بصريح العبارة، فلم تأت بإجابة، إنما ترقرقت الدموع وحدها في مآقيها. لكن الرجل المتزن لم يبد أي تأثر عندما لاحظ عدم قدرتها على الكلام. أعطاها أجرها الشهري مقدماً ثم سرحها في الحال. بدا الرجل غاضباً لدرجة انه أخذ يزعق محتداً بانه وقع الآن في مشكلة العثور على بديل لها، وان مافعلته تونكا عبارة عن عملية نصب وإحتيال، لأنها تسترت على وضعها يوم قبلت الوظيفة. عندما قال لها هذا الكلام فانه لم يصرف حتى سكرتيرة المكتب. رأت تونكا ان تصرفه هذا كان سيئاً للغاية. أمّا هو فقد أعجب خفية بهذا التاجر النكرة الرثّ القميء الذي لم يتردد لحظة واحدة في التضحية بتونكا من أجل سمعة متجره، ومعها دموعها والطفل والله يعلم أية إختلاقات وأية أرواح ضائعة وأي مصير إنسانيّ، بل انه لايعلم عن ذلك شيئاً ولا يريد ان يعلم.

أصبحا الآن مجبرين على تناول طعامهما في المحلات المتواضعة ببضعة فلوس وسط القذارة والجفاء، طعاماً لم يستسغه. كان يُحضِرُ تونكا لهذه الوجبات في أوقات دقيقة، حسبما يقتضي الإلتزام. يبدو إنه أثار بملابسه الفاخرة إستغراب العمال البسطاء ومستخدمي المتاجر وكذلك من خلال جديته وصمته وإخلاصه لصاحبته الحامل التي كان يلازمها على الدوام. هنا بدأت نظرات التهكم والسخرية تحوم حوله، من بينها نظرات تقدير وعرفان لم يكن وقعها في نفسه أقلّ حرقة.

إنه حقّاً لتحوّل عجيب: الإختراع العلمي في الرأس من ناحية والقناعة الراسخة بخيانة تونكا من ناحية أخرى، وقد تمّ ذلك كلّه بين حثالة البشر في المدينة الكبيرة. لم يكن من قبل قد شعر بطوائف العالم الإجتماعية مثلما شعر بها الآن، حالما يخرج الى الشوارع يراها تطارد

بعضها وتتقافز مثل قطعان من كلاب الصيد الصاخبة المنفلتة، كلّ واحد منها مشبع بالنهم والشراهة، لكنها، كلّها مجتمعة، تشكل قطيعاً واحداً متجانساً، إلا هو وحده الذي لاأحد له من بينها يأمل منه عوناً أو سنداً، أو على الأقل يروي له مصيره. لم يكن لديه وقت للأصدقاء، لم يكن يرغب في ذلك ولم يشعر بجاذبية نحوهم: لقد كان مثقلاً بأفكاره، وهذا بحد ذاته حمل حياتي خطير، طالما لم يدرك الناس الى الآن، انهم سوف يستفيدون من مزاياه.

ليس هناك جهة يمكن ان يفتش فيها عن معونة، فبدا غريباً منقطعاً. ومن هي تونكا؟ أهي روح من روحه؟ كلا! إنها، حسب الإتفاق الرمزي المطلق، مخلوق مجهول يحمل سرّاً خفياً بُعثَ إليه وحده.

كان هناك شقّ منفرج فيه بصيص بعيد من النور، فأخذت أفكاره تتجه إليه. كان منشغلاً وقتها في إختراع جديد ستكون أهميته في المستقبل كبيرة جداً للآخرين. أصبح من الثابت ان هناك شيئاً آخر عدا التفكير، هناك الشجاعة والتفاؤل والحدس الذي لايخطأ أبداً، هناك المغزى الحياتي السليم الذي تحوّل الى نجمة بدأ يتعقبها الآن. صار يقتفي آثار الإحتمالات الكبرى دون غيرها والتي كان يرى في احداها الحق دائماً. بات مقتنعاً من ان كلّ شيء سيبقى على حاله لكي يصل المرء الى ذلك الشيء ذي الصفة المختلفة التي سوف يكتشفها هو بنفسه. لو انه تفحّص كلّ شكّ ممكن مثلما كان يفعل مع تونكا، فانه لن يصل أبداً الى نهاية، إذ ان التفكير يعني عدم التفكير بافراط، ومن دون الإستغناء عن لامحدودية الموهبة الإختراعية يصبح من المتعذر تحقيق أي إختراع. بدا هذا الشطر من حياته وكأنه يقف تحت النجمة التي هي السعادة العصيّة على الإثبات أو السرّ الدفين، بينما

ظلّ الشطر الآخر معتماً خالياً من النور.

قام بعد ذلك يراهن مع تونكا على يانصيب سباق الخيل. ظهرت نتائج السحب عندما كان ينتظر تونكا. إنهما سيشتريان في الطريق قائمة النتائج ويقرآنها معاً. كان الموضوع كلّه عبارة عن يانصيب بائس لسباق الخيل، يحصل فيه الرقم الرابح على بضعة الآف من الماركات. لكن ذلك ليس مهماً، لأن هذا المبلغ، بالرغم من تواضعه، سيمنحه فرصة جيدة لكي يحضر للمستقبل القريب، وحتى لو كان الربح بضع مئات من الماركات فان ذلك سيمكنه من شراء ثياب وملابس داخلية لتونكا، أو سينقذها من غرفة السقف المقبضة، وحتى لو كان الربح مجرد عشرين ماركاً فان ذلك سيشجعه على شراء بطاقة يانصيب جديدة. نعم، حتى لو كان الربح خمسة ماركات فان ذلك سيكون بمثابة محاولة للحاق بمركبة الحياة، لكنها أخفقت هذه المرّة متعثرة في ناحية مجهولة.

غير ان ورقات اليانصيب الثلاث كانت خاسرة. بالطبع انه إشتراها لمجرد المزاح. وبينما كان ينتظر تونكا من جديد، إنتابه إحساس عارم بالفراغ الذي حمل له نبأ الخيبة والإخفاق. من المحتمل أيضاً انه كان يتأرجح بين الأمل واليأس، أو ان ذلك حدث لأن العشرين فلساً التي أنفقها على قائمة النتائج تُعدّ خسارة بالنسبة الى شخص في مثل حالته، فشعر فجأة ان هناك قوّة لامرئية تتربص به وتريد له الشرّ، وانه محاط بالعدوانية الرهيبة من جميع الجهات.

صار بعدها يؤمن بالخرافات، فأصبح الإنسان الذي في داخله، هذا الذي يرافق تونكا كلّ مساء بانتظام، يؤمن بالخرافة، بينما ظلّ الإنسان الآخر يعمل كرجل علم. كان له خاتمان يضعهما بالتناوب، أحدهما قديم ونفيس، بينما كان الآخر هدية من والديه، لكنه لم يحمله بشرف

وإعتزاز عاليين. أخذ يلاحظ انه في الأيام التي يضع فيها الخاتم الجديد الذي لم يكن سوى خاتم ثمين عادي تماماً يصبح في مأمن من النكبات الجديدة أكثر بكثير من الأيام التي يضع فيها الخاتم النفيس جداً، ومنذ ذلك الحين لم يعد يجرؤ أبداً على إدخال هذا الخاتم في اصبعه، إنما كان يحمل الآخر مثل النير الذي لاخلاص منه. كذلك كان الأمر مع ذقنه الذي تركه ذات يوم وبمحض الصدفة دون حلاقة فعاش يوماً سعيداً، وعندما حلقه في اليوم التالي- بالرغم من ان تجربة الأمس قد أنذرته – تلقى فوراً عقوبة على هذا الخرق أتت من مشجب مصائبه التافهة التي هي فقط في حالته وحده مصيبة ونكبة بدلاً من ان تكون مجرد مزحة وإضحوكة عابرة. ومنذ ذلك اليوم أصبح عاجزاً عن إتخاذ أي قرار يمس لحيته بسوء، لذلك نمت وطالت، ولم يعد يفعل سوى ان يشذّب أطرافها، فحملها هكذا طوال الأسابيع الحزينة التي جاءت فيما بعد. أدّى هذا الذقن الى تشويه مظهره الخارجي، لكنه كان تماماً مثل تونكا، أي كلما كان قبيحاً إزداد تشبثاً به. ربما سيكون شعوره نحوها أكثر رقة ورهافة كلما إزدادت خيبة أمله عمقاً. إذاً انه ذقن جيد من الداخل لأنه بشع من الخارج.

لم تحب تونكا الذقن ولم تفهم معناه، ولولاها ما كان له ان يعرف كم قبيحاً كان الذقن، لأن المرء لايستطيع معرفة نفسه إلا من خلال الآخرين الذين يتمرّى بهم.

وبما ان المرء لايدرك شيئاً من دخيلته، فانه ربما تمنى أحياناً الموتَ لتونكا، لعل هذه الحياة التي لاتطاق تجد لها نهاية ما. إنه يحبّ ذقنه لمجرد انه كان يخفي ويزيّف كلّ شيء.

IX

أحياناً يباغتها من خلف الكمين الذي كان يتحصن به فيطرح عليها سؤلاً مصطنعاً ساذجاً، يريد من خلال نعومته ان يزحلق حذرها. غالباً مايكون حذرها هو الذي يباغته. «من العبث ان تتنكري للوقائع الثابتة. هيّا، إعترفي أخيراً، لعلّ الإستقامة والصراحة تحلّ بيننا من جديد. كيف حدث ذلك؟» سألها بهمس. كانت لديها دئماً إجابة واحدة جاهزة: «إذا لم تثق بي، اهجرني!» وهذه الإجابة هي بالتأكيد سوء إستخدام فاضح لحالتها المعدومة الحماية والأمان، إلا أنها من ناحية ثانية، الإجابة الصريحة الصدق، لأن تونكا لاتحسن الدفاع عن نفسها بوسائل طبيّة أو فلسفية، وبهذا فانها تضمن صدقها وصراحتها من خلال صدق شخصيتها.

كان يرافقها بعد ذلك في جولاتها، لأنه لايثق ان يتركها بمفردها، ليس لأنه يخشى حدوث شيء محدد، إنما كان مجرد تركها وحدها في الشوارع الغريبة يثير قلقه. عندما يلتقي بها مساءً في مكان ما ثم يسيران الى جنب بعضهما ويصادفهما في العتمة رجل عابر لايلقي عليهما التحية، يخامره الشكّ، ان هذا الرجل معروف الوجه، فتبدو له تونكا وكأنها تحمرّ من الخجل، فتحلّ هنا الذكرى الأليمة دفعة واحدة: لابد إنها رافقته ذات يوم في مناسبة معيّنة، ثم تأتي القناعة الثابتة التي تجتاح أيضاً وجه تونكا البرىء: هذا هو الفاعل!

بدا له ذات مرّة على هيئة شاب ثري، يتدرب في شركة تصدير، كانت تونكا تعرفه معرفة سطحية. في المرّة الثانية بدا على هيئة مطرب صادح الصوت في فرقة إنشاد، لكنه فقد صوته على حين غرّة، وكان يقيم لدى مؤجرة تونكا في بناية واحدة. كثيرا مايبدو هؤلاء على هيئة أشباح نائية مضحكة تُقذفُ في الذاكرة مثل طرد بريدي قذر مربوط

بحبل، يحمل جوهر الحقيقة، لكنه لايخلّف عند أول محاولة لحلّ رباطه سوى كومة من غبار الإنهيار والقهر المفجع.

كانت هذه القناعات المتعلقة بخيانة تونكا تنطوي على مايشبه الحلم، إلا ان تونكا كانت تحملها بخضوعها المؤثر الصامت الرقيق: لكن ألا يعني هذا كلّ شيء!؟

إذا ما راجع هذه الذكريات في مخيلته فانها ستبدو له كلها ثنائية المعنى، مثلاً: الطريقة السهلة التي هرعت بها إليه والتي يمكن تفسيرها باللامبالاة أو الثقة بالنفس، ثم الطريقة التي خدمته بها، هل كانت كسلاً ومتعة في آن واحد؟ لو إنها كانت تحبّ التعلّق كالكلب، لتعلقت أيضاً بأي رجل آخر كالكلب. لقد شعر بذلك منذ الليلة الأولى، وهل كانت هذه حقّاً ليلتها الأولى؟

كان وقتها قد ركزّ جلّ إهتمامه على العلامات الروحية وحدها، لأن العلامات الجسدية لم تكن آنذاك واضحة للعيان، واليوم بات الأمر متأخراً جداً. لقد إنتشر صمتها الآن، فشمل كلّ شيء، وهذا يمكن ان يُعدّ براءة أو عناداً وكذلك خداعاً أو معاناة أو ندماً أو خوفاً، وأيضاً عاراً عليه. وحتى لو أتيح له ان يعيش ذلك كلّه من جديد فانه سوف لايخرج في نهاية المطاف بنتيجة ذات قيمة. إذا ما شككت بإنسان فسوف تنقلب علامات الإخلاص الصارخة الى علامات الخيانة بالذات، وإذا ما وضعت ثقتك به فسوف تتحوّل حينئذ جميع أدلّة الخيانة الدامغة الى إخلاص صارم يذرف دمعاً سخياً مثل طفل حبسه الكبار في غرفة مظلمة. ليس هناك أية قضيّة يمكن ان تفسّر بمفردها، لأن الأمور مرتبطة ببعضها البعض، فأمّا ان تحبّ كلّ شيء أو ان تعتبر ذلك كلّه مجرد خدعة، ولكي تعرف من هي تونكا عليك ان تجيب عليها بأسلوب محدد، عليك ان تهتف بها: من أنتِ؟ ومعرفة سرّ

ذاتها هو أمر متعلق الى حدٍّ ما به وحده.

هناك ثم تشتت تونكا بعذوبة وشفافية تغشي الأبصار.

فكتب الى أمّه: ساقاها طويلان، يبلغ طولهما من الأرض الى الركبتين مقدار إبتعادهما عن هامة الرأس، وهما على العموم ممشوقان، يستطيعان المشي بلا كلل وكأنهما توأمان. لم يكن جلدها ناعماً، لكنه أبيض خال من أي شائبة، وثدياها ثقيلان ممتلئان قليلاً، ولها زغب ناعم تحت الإبطين غامق اللون أهلبَ، يبدو بالإقتران مع الجسد البضّ الرشيق جميلاً لدرجة تثير الحياء، وشعرها يتهدل فوق الأذنين خصلاً وذوائبَ. أحياناً تعتقد ان عليها ان تكويه وتصففه على شكل طرّة، لتبدو بعد ذلك كالخادمة، وهذا هو بالتأكيد الشرّ الوحيد الذي فعلته في حياتها...

أو إنه يجيب على أمّه: بين «أنكونا» و«فيوما» وربما أيضاً بين «ميدلكيركه» ومدينة مجهولة ينتصبُ فنارٌ وضّاءٌ يومضُ نورهُ على صفحة البحر كلّ ليلة مثل خفقة المروحة اليدوية، وبعد حين لاشيء هناك، ثم يأتي النور مرّة ثانية. وفي «فنتال» تتفتح الزهور البرية البيضاء بين الأعشاب.

فهل هذه هي الجغرافيا؟ أم إنها علم النبات؟ أم الملاحة؟ كلا، إنه الوجه، إنه الشيء القائم هنا بتفرد وتوحد وأبدية، لذلك فهو في الوقت ذاته غير موجود هنا. وإلا فما هو هذا؟

بالطبع إنه لم يبعث بهذه الأجوبة العجيبة.

X

هناك مسألة عصيّة على الإمساك من شأنها ان تجعل القناعة قناعة حقيقية، مازالت غائبة.

ذات ليلة سافر مع الأم وهاينست، وفي حوالي الساعة الثانية، أي في لحظة التعب الذي لايرحم، حين تترنح الأجساد في عربات القطار باحثةً عن سند، تراءى له ان أمّه كانت تستند الى كتف هايسنت بتفاهم تام، وهايسنت يمسك بيدها، فإتسعت عيناه من الغضب، إذ إنه شعر بالحزن على أبيه. عندما أحنى جذعه لكي يدقق في الأمر، رأى هايسنت يجلس منفصلاً هذه المرّة، بينما كانت أمّه تبتعد برأسها الى الجهة المغايرة تماماً. وبعد برهة عندما إتكأ الى الخلف ثانية، تكرر المشهد برمته. كان كبيراً هذا العذاب الذي أحدثه إنعدام الرؤية، أو ربما كانت الرؤية نفسها غير دقيقة بفعل عذاب الظلام. أخيراً قال في نفسه إنه بات مقتنعاً تماماً، وعاهد نفسه على ان يستجوب أمّه في الصباح. غير ان الصباح جاء فتبخر القرار كما الظلام. في المرّة الثانية تعرضت الأمّ أثناء السفر الى وعكة صحيّة، فكان على هايسنت ان يكتب رسالة الى الأب نيابة عنها، فسأل بنزق: «ما الذي عليّ ان أكتبه؟» – هذا الذي كان يحبّر ملازم الخطابات الطويلة إرضاءً للأمّ بعد كلّ إنقطاع!

هنا نشب شجار في الحال، وإغتاظ الإبن مرّة أخرى. بعد ان إزدادت حالة أمّه سوءاً ووصلت الى مرحلة الخطر، إضطرا ان يفعلا شيئاً، فتقاطعت هنا يدا هايسنت مع يديه، فأخذ يبعدهما الى الجانب بين لحظة وأخرى، هكذا طوال الوقت، الى ان سأل هايسنت بحزن «لماذا تلكزني الى الجانب كلّ مرّة؟» فإرتعب الإبن من نبرة التعاسة التي حملها الصوت. إن المرء لايعلم إلا القليل عمّا يعلم وإنه يريد ما لا يريد. هذا على الأقل مايستطيع ان يدركه المرء، لكنه ظلّ قابعاً في غرفته، تنهشه الغيرة ويدعي انه ليس غيوراً، إنما يفكّر في موضوع آخر ناء، يفكّر في إختراع مدهش، هكذا كانت مشاعره.

حين يتطلع حوله لايرى عيباً أو نقصاً، فكساءُ الغرفةِ الورقيّ كان أخضر رمادياً والأبواب بنيّة الأحمرار، مليئة بالأضواء المنعكسة الصامتة. كانت رزّات الأبواب معتمة داكنة مصنوعة من النحاس، وفي وسط الغرفة ينتصب كرسيّ مكسوّ بالقطيفة الحمراء حمرة النبيذ وله إطار بنّيّ من خشب المهاغوني. لكن هذه الموجودات كلها كان فيها إعوجاج وإنحناء، فتبدو آيلة للسقوط حتى وأنْ كانت تقف مستقيمة. تراءت له لانهائية وبلا معنى، فأخذ يقلّص عينيه ويتطلع حوله، لكن العيب ليس في العينين، بل في الموجودات نفسها التي تحث على الإعتقاد انها كانت موجوده قبل وجودها العينيّ. إذا ما نظر المرءُ الى العالَم، ليس بعين العالَم ذاته، فانه سينطبع على بصره، لكنه سيراه مفتتاً الى أجزاء خالية من المغزى، تعيش حزينة ومنفصلة عن بعضها البعض كالكواكب في سماء الليل. إنه لايحتاج سوى ان يطل من الشبّاك ليرى كيف ان عالَم الحوذي الذي ينتظر بعربته هناك، في الأسفل، يتداخل في عالَم الموظّف العابر، فينشأ تكوين مبقور مبتور وفوضى مثيرة للغثيان وإضطراب في النقاط المركزية المتجاذبة الأبعاد والتي تقفُ على كلٍ واحدة منها دائرةٌ كاملةٌ من الإعجاب الدنيوي ومن الثقة بالنفس، بالرغم من ان هذا كلّه ليس سوى إرشادات لكي يسير المرء بإستقامة في عالَم لاأسفل له ولا أعلى.

تشابكت هنا الرغبة والعلم والحسّ معاً وتحوّلت الى عقدة غَزْلٍ لايراها المرء إلا بعد ان يضيع طرف الخيط. لكن ربما يستطيع المرء التعامل مع العالَم على نحو يختلف عن السير وراء خيط الحقيقة؟

في هذه اللحظات، حيث يفصله عن الآخرين مظهر زائف من البرودة، بدت له تونكا أكبر من مجرد فتاة، بل بدت له وكأنها رسالة سماوية. هنا أخذ يخاطب نفسه: أمّا ان أقدم على الزواج من تونكا

وأمّا ان أهجرها هي وهذه الأفكار الى الأبد.

لكن ليس هناك من يؤاخذه لأنه لم يفعل هذه أو تلك للأسباب ذاتها، إذ ان هذه الأفكار والتصورات قد تنطوي على قدر من المشروعية، إلا ان المرء لا يشكّ اليوم بان نصفها هو ضرب من الوهم. إذ إنه فكّر فيها، غير انه لم يفكّر على نحو جاد. كان يتراءى لنفسه أحياناً كالممتحن، لكنه عندما يستفيق ويتحدث الى نفسه كما لو يتحدث الى رجل فانه يقول ان هذا الإمتحان كان يقوم على سؤال واحد: هل هو ضد الإحتمال الذي تبلغ نسبته تسعاً وتسعين بالمئة، وهل هو مخدوع، أو مجرد أحمق غبيّ يريد ان يصدّق تونكا عنوةً وبالإكراه.

لكن، في واقع الأمر، فقدت حتى هذه الإمكانية المخجلة الكثير من أهميتها.

XI

مما يبعث على الدهشة حقاً هو ان هذا الزمن كان زمن نجاحاته العلمية الكبرى، فاستطاع ان ينجز مهمته في خطوطها العامة وعمّا قريب ستظهر النتائج. أخذ بعض الناس يترددون عليه لتهنئته ولكي يمنحوا قلبه الثقة اللازمة، حتى لو انهم كانوا يتحدثون عن الكيمياء. كانوا كلهم مؤمنين بإحتمال نجاحه الذي بلغت نسبته تسعاً وتسعين بالمئة، لذلك فقد أغرق نفسه في العمل. لكن في الوقت الذي بدأ فيه بتثبيت شخصيته البرجوازية، داخلاً في عالم البلوغ الحضاري المدني، كانت أفكاره تتجول في مسارات غير آمنة كلما إبتعد عن النشاط العلمي. إنه بات لا يحتاج أكثر من التطرق الى وجود تونكا حتى تنثال عليه حياة كاملة من الأشكال والتكوينات التي تنسخ بعضها البعض دون ان تفصح عن مغزاها مثل مجهولينَ يرون بعضهم

في الطريق ذاته كلّ يوم. ثم جاء مساعد المطرب الذي إتهمه بالخيانة ذات مرّة ومعه جميع أولئك الذين تدور حولهم بعض الشبهات. إنهم لم يفعلوا شيئاً يستحق الذكر، لكنهم كانوا حاضرين، وبما ان كلّ واحد منهم كان يظهر أحياناً في شخصيتين أو أكثر، فان المرء لايشعر بالغيرة بسهولة. تحولّت هذه الوقائع الى طيف شفّاف كالهواء الشديد النقاء، الذي يصل نقاؤه الى مستوى الحرية والفراغ المتحررين من أية أنانية، حيث تجري مصادفات الحياة الدنيا تحت قبتهما الساكنة على نحو تافه في ضآلته. غالباً ماتتحول هذه الرؤى الى أحلام، أو انها كانت مجرد أحلام في الأصل، وكان هو الذي يتسلق عالَم ظلها الشاحب مباشرةً كلما خفّت عنه متاعب العمل وكأنه قد أنذر بان هذا العمل لايشكّل في الواقع جوهر حياته الحقيقية.

كانت هذه الأحلام الحقيقية تقع على مستوى أكثر عمقاً من يقظته الدافئة كالغرف الخفيضة الملوّنة التي كانت العمّةُ تعنّف فيها تونكا لأنها لم تبك في جنازة الجدّة، أو التي إعترف فيها رجلٌ بشع بانه والد طفل تونكا التي كانت تقف متساءلة بنظراتها، حيث لم تنكر للمرّة الأولى، إنما وقفت بلا حراك وبإبتسامة لامتناهية. حدث ذلك في غرفة فيها نباتات خضراء وبساط أحمر ونجوم زرقاء على الجدران، وعندما تطلع هو الى اللانهاية أصبح لون البساط أخضر وأصبحت أوراق النباتات كبيرة ياقوتية الإحمرار وبدأت الحيطان تنثّ لوناً أصفر رقيقاً كجلد الإنسان، في حين وقفت تونكا في مكانها زرقاء صافية الزرقة مثل ضوء القمر. كان يهرب الى هذه الأحلام كما لو انه يهرب نوعاً ما الى سعادة سهلة المنال. ربما كانت هذه الأحلام مجرد حالة تخاذل أرادت ان تصرخ في تونكا: «إعترفي وسيكون كلّ شيء على ما يرام!»

أصبح مضطرباً بسبب تردد الأحلام التي كانت خالية من توتر

اليقظة النصفية، هذا التوتر الذي ينزع دوماً وأبداً الى التصعيد.

كانت تونكا خلال تلك الأحلام رائعة كبيرة كالحب، وليس مجرد فتاة المتجر الصغير التي أُخذت من هناك، لكنها بدت في كلّ مرّة شديدة الإختلاف. بدت أحياناً وكأنها أختها الصغيرة التي لم تولد قطّ، أحياناً تكون مجرد حفيف فساتين أو نبرة صوت آخر أو حركة مباغتة شديدة الغرابة أو إغراء مذهل لمغامرة مجهولة، أتت إليه هكذا بطريقة غير ممكنة إلا من خلال الحلم وحده، طريقة مأخوذة من الإلفة الدافئة لإسمها والتي أهدت لروحيهما السعادة التي تسبق التملّك عندما كانا يعيشان معاً في حالة من التوتر والإنفعال أمام المستحيل. توغلت في أعماقه المحبة الهلامية الطلقة والحميمية الخارقة جنباً الى جنب مع الصور المتناسخة الثنائية المعنى، غير ان من الصعب القول ان هذه الصور كانت تنحلّ وتنصل من تونكا، أو ان تونكا هي التي أرادت الإرتباط بها.

كلّما فكّر بعمق أدرك ان هذه القدرة المبهمة على الإنتقال والعدوى وهذا الحبّ المستقل المتفرد لابد ان يظهرا في حالات الصحو أيضاً. ليست الحبيبة هي مصدر هذه المشاعر، بالرغم من انها تبدو وكأنها هي التي أثارتها، بل المشاعر نفسها كانت وضعت قد وراءها كما يوضع النور. وبينما كان هناك في الحلم شرخٌ دقيق يفصلُ الحبَّ عن الحبيبة، فانه ينمو في حالة الصحو على نحو متضخم مشوّه، يبدو المرء من خلاله وكأنه ضحية في مسرحية تُمثلُ فيها أدوار متشابهة ثنائية يكون فيها المشاهد مجبراً لسبب ما على التعاطف مع شخصية تبدو رائعة بينما هي في واقع الحال لاتستحق الإحترام. كان عاجزاً تماماً عن وضع النور وراء تونكا.

لابد ان يكون للتفكير المتواصل في الخيول علاقة بالأمر، ولابد ان

ينطوي ذلك على معنى خاص. لعلّ ذلك كان تونكا، أو يانصيب سباق الخيل الذي خسره، أو ربما طفولته البعيدة التي مرّت بها الجياد البنيّة الجميلة البقعاء والبرشاء بعُددها وأطقمها المصنوعة من النحاس الثقيل والفراء. أحياناً يتوهج فجأة قلب الطفولة في أعماقه والذي كان لاينظر الى الكرم والرحمة والإيمان باعتبارها واجبات تشغل إهتمام المرء، إنما فرسان في بستان سحريّ للمغامرة والتحرر. ربما كان هذا التوهج الأخير قبل الإنطفاء الأخير، أو الحساسية التي خلقتها الندبة التي أخذت تتشكل للتو. كانت الخيول تجرّ دوماً جذوع الأشجار، فتصدر القنطرة من تحت حوافرها صوتاً خشبياً مقبضاً والساسة يرتدون ستراً قصيرة منقوشة بمكعبات بنفسجية وبنيّة. كانوا جميعهم يرفعون قبعاتهم عندما يمرون أمام الصليب الكبير وسط القنطرة والذي وُضع فيه تمثالٌ للمسيح صُنع من الصفيح، إلا الصبي الصغير الذي كان ينظر الى القنطرة في الشتاء رافضاً ان يرفع قبعته. لكنه بدا فجأة عاجزاً تماماً غير قادر على ان يزرر سترته، لأن الصقيع قد شلّ أصابعه التي تشبثت بالزرّ في محاولة لجذبه، إلا انه عندما أراد إدخاله في ثقب الزرّ قفز الى موضعه القديم مرّة ثانية، فبقيت الأصابع حائرة مندهشة، وكلّما كررت المحاولة وقعت في إضطراب متشنج.

هذه هي الذكرى التي كانت تخطر في ذهنه على الدوام.

XII

أثناء هذه الإضطرابات تقدمت أعراض الحمل كاشفة عن الحقيقة مثلما هي. ثم جاءت الدفعة المعبأة بالحمل التي جعلت تونكا تحتاج الى ذراع تسندها وجاء معها الجسد الثقيل الذي كان دافئاً على نحو غامض، وطريقة الجلوس بالساقين المنفرجين في الوضع القبيح الذي

يدعو الى الرثاء، وجميع تحوّلات الحمل المدهش الذي غيّر بناء الجسد وحوّله الى كبسولة محشوة بالبذار وشوّه جميع القياسات، فجعل الردفين واسعين هاطلين الى الأسفل وإنتزع من الركبتين صلابتهما، وجعل الرقبة غليظة ومن الثديين ضرعين مترهلين وغطّى البطن بالأوردة الدقيقة الحمراء والزرقاء لدرجة تثير الرعب، لأن دروان الدم بات شديد الإلتصاق بالعالم الخارجي بشكل وكأنه الموت ذاته. حملت هذا الشكل الجديد الذي خلفته الكتلة المشوهة بصبر وإكراه، فانعكست هذه الكتلة المخربة على العينين اللتين أخذتا تتطلعان ببلادة وتعلقان في الأشياء ولاتنفصلان عنها إلا بتثاقل. كانت عينا تونكا تعلقان فيه أيضاً. كانت تلبّي طلباته الصغيرة وتخدمه بجهد فائق وكأنها تريد ان تثبت وللمرّة الأخيرة بأنها تعيش من أجله وحده. لم ترن في عينيها أي ملامح خجل من بشاعة شكلها وتشوهه، انما إستقرت فيهما الرغبة الوحيدة وهي ان تفعل له الكثير على الرغم من حركاتها المتثاقلة.

أصبحا الآن الى حد ما قريبين من بعضهما مثلما كانا من قبل. لم يتبادلا الحديث كثيراً، بل كانا ملتصقين ببعضهما. ثم أخذ الحمل يتقدم كعقارب الساعة وهما يقفان عاجزين أمامه. كان عليهما ان يفرغا من الحديث منذ زمن، لكن الزمن مرّ سريعاً. كان إنسان الظل الخرافي الذي يرقد في أعماقه يحاول عبثاً إخراج بضع كلمات بغية الوصول الى نقطة الإدراك الثاقبة التي ستعلن: ان على المرء ان يقيّم كلّ ما مضى بشكل مختلف. لكن هذا الإدراك كان قلقاً أيضاً وثنائي المعنى، شأنه شأن الإدراكات كلها. كان الزمن يمضي حثيثاً، كان الزمن يهرب ويتلاشى ويتبدد. كانت ساعة الحائط أشدّ التصاقاً بالحياة من هذه الأفكار.

كانا يعيشان في غرفة صغيرة متواضعة، لم يحدث فيها ما يستحق الإهتمام وكانت ساعة الحائط في واقع الأمر ساعة مطبخ مستديرة، تُشير دوماً الى زمن مطبخي، بينما أمّه تقذفه بالرسائل التي سجلت فيها جميع الأدلة والبراهين، لكنها لم تبعث له مالاً، لأنها أنفقته على إستشارات الأطباء الذين يريدون إعادة رأسه الى موضعه من جديد، فكان يتفهم ذلك جيداً ولم يأخذه مأخذ الجدّ. ذات مرّة بعثت له أمّه بتقرير طبّي جديد يثبت بشكل قاطع ان تونكا كانت فعلاً تخونه. وبدلاً ان تقرع هذه الرسالة جرس الإنذار في قلبه، زفّت له فقط مفاجأة سارة الى حدٍّ ما وكأن الأمر لايعنيه، وأخذ يفكر فقط في الكيفية التي حدث فيها، شاعراً في الوقت ذاته: كم هي مسكينة تونكا التي عانت الكثير بسبب فعل واحد مرتبك عابر.. !

نعم، عليه أحياناً ان يتخذ الحيطة لئلا يقول لتونكا مباشرة وبصيغة مازحة: تونكا، إنتبهي! لقد خطر في ذهني ذلك الشيء الذي كنّا نسيناه، وهو مع مَن كنتِ تمارسين الخيانة!

وهكذا مرّ كلّ شيء سريعاً. لاحدث جديداً. بقيت الساعة وحدها. والألفة القديمة.

بعد حين نطقت لحظات الشهوة الجسدية المتبادلة بالشيء الذي صمتا عنه، فدخلا الغرفة مثلما يدخل أصحاب قدماء بعد غياب طويل، هكذا ببداهة وبلا إرتباك. بدت النوافذ المطلة على الباحة الضيّقة كدرةً معتمةً في الظلام، كان الناس قد ذهبوا للعمل منذ زمن وأصبحت الباحة الخارجية داكنة العتمة كالبئر وبدت أشعة الشمس في الدار وكأنها تنبعث من أقراص الرصاص، فكانت ترفع الحاجة من مكانها لتلقي بها ميتة من فرط الضياء. كان هناك على سبيل المثال تقويم صغير قديم، كان مفتوحاً بشكل وكأن تونكا قلّبته توّاً، وهناك

في طرف المساحة البيضاء لإحدى الصفحات دوّن رقم تلفون بالقلم الأحمر، فبدا وكأنه هرم من الذكريات التي يحملها يومٌ واحدٌ، بينما كانت الصفحات الأخرى كلها مليئة بالملاحظات اليومية حول الأسعار والحاجيات المنزلية، ماعدا هذه الصفحة التي كانت خالية إلا من هذه العلامة. وعلى الفور بات مقتنعاً من ان هذه العلامة تعني ذكرى ذلك اليوم الذي تسترت تونكا على وقائعه، حيث ان زمنه كان الى حد ما مطابقاً لحدوث الواقعة، فتدفق اليقين في رأسه كفورة الدم. بيد ان هذا اليقين لم يدم أطول من هذه الفورة الفجائية، ثم انسحب بعد لحظة الى نقطة العدم. إذا كان على المرء ان يؤمن بهذا الرقم، فعليه أيضاً ان يؤمن بالمعجزة، لكن المهلك في الموضوع هو ان المرء لم يفعل أياًّ منهما.

رمق أحدهما الآخر بنظرة مشبعة بالرعب، إذ ان تونكا لمحت صفحة التقويم في يده. بدت الأشياء تحت ضياء الغرفة العجيب وكأنها مومياءات نفسها، وأصبحت الأجساد باردة وأطراف الأصابع متجمدة وأحتفظت الأحشاء وحدها بحرارة الحياة مثل كرة الغزل الساخنة. كان الطبيب قد حذّر من ان تونكا تحتاج الى عناية فائقة لكي لاتتعرض الى مكروه. لكن على المرء، لاسيما في تلك الأيام، ان لايثق بأقوال الأطباء. من الناحية الأخرى بدت جميع المساعي بلا فائدة. ربما كانت تونكا خائرة القوى، لذلك فقد تحوّلت الى أسطورة ناقصة الولادة.

توسلت به تونكا «تعال أليّ!» فتبادلا الألم والدفء بإتفاق مؤلم حزين.

XIII

نُقلت تونكا الى المستشفى، لأن الإنعطافة الخطيرة قد حدثت. كان

يسمح له في زيارتها بضع ساعات. وهكذا فقد الزمن نفسه بنفسه. في اليوم الذي غادرت فيه البيت حلقَ ذقنه، فعاد الى شخصيته الأولى. عَلِمَ بعد فترة قصيرة أنها خلعت ضرسها في اليوم ذاته، وقد فعلت ذلك بنفاد صبر وبذهن مشتت، بعد ان أحتفظت به زمناً طويلاً بسبب التقشّف، الى ان شعرت بالرعب من انها ستكون عاجزة عن خلعه الى الأبد، ففعلت ذلك بمثابة عمل حرّ أخير قبل دخولها المستشفى. تهدلت وجنتاها وأصبحتا حزينتين، وكانت ترفض أي مساعدة. هنا بدت الأحلام أشد قوّة وفاعلية من السابق. كان هناك حلم يتكرر كلّ مرّة باشكال مختلفة. روت له فتاة مطموسة الملامح شاحبة الجلد: ان حبيبته الجديدة، المختلقة بالطبع، كانت تخونه، فسألها مأخوذاً بنزعة الفضول «هل تعتقدين ان تونكا كانت أحسن منها؟» ثم صنع وجهاً يائساً لكي يحرّض الفتاة على الإعتراف بفضائل وحسنات تونكا وبالقناعة الراسخة التي أطلقت فيها حكمها الأول. شعر للحظة بالإرتياح الذي سوف يأتي به قرارها الحاسم. لكن بدلاً من ذلك لمحَ إبتسامة بطيئة ترتسم على الوجه الذي جلس قبالته، رأى الإبتسامة تتسع ببطء رهيب، وبعد برهة قالت الفتاة «أها! لقد كذبتْ عليكَ بطريقة مخيفة. إنها لاشكّ فتاة دمثة طيبة، لكن من الصعب تصديق كلمة واحدة من كلامها. كانت تريد ان تصبح سيدة مرغوبة.»

كان عذاب الحلم الرهيب ليس في الإبتسامة القاطعة كحد السكين، إنما في عدم قدرته على مواجهة النهاية السطحية المتحمسة، لأن هذه الحماسة نطقت من أعماق ورحه وهو في حالة من الرقاد العميق.

عندما يجلس على فراش تونكا يصاب بالوجوم. آه، لو انه كان شجاعاً سخيّاً كأحلامه زماناً! ربما سيبدو متجلياً لو انه منحَ تونكا

بعضاً من جهده الذي كان يبذله في إنجاز الإختراعات. لم يستطع الأطباء العثور على مرض أو عاهة في جسمه، فجعله الإحتمال بوجود ظاهرة شديدة الغموض يزداد إرتباطاً بتونكا. انه لا يحتاج سوى ان يصدقها ليصبح مريضاً بالفعل. ربما كانت هذه الحالة ممكنة في زمن آخر– همسَ في نفسه، فاعجبته أفكاره الإستدراكية، ربما كان لها ان تصبح في ذلك الزمن فتاة مشهورة تُطلب يدها ويعتبر الأمراء أنفسهم غير آهلين لها. لكن اليوم؟ على المرء ان يفكّر بإستفاضة في هذا الموضوع– هكذا جلسَ على حافة الفراش لطيفاً طيّباً ورقيقاً في الوقت ذاته، لكنه لم ينطق بالعبارة: أني أصدقكِ! بالرغم من انه كان يصدقها منذ زمن طويل، يصدقها لمجرد انه لايستطيع ان يكون جاحداً شريراً إزاءها، وليس لأنه يريد الإعتراف أمام نفسه بجميع التبعيات المترتبة جرّاء ذلك. ولأنه لم يفعل ذلك فقد بات في مأمن ووضع مستقر على الأرض.

كانت مشاهد المستشفى تعذبه: الأطباء، والفحوصات، والنظام الصارم. لقد خطفها العالَمُ وربطها الى طاولة العمليات، لكن ذلك بدا له وكأنه عيب فيها. لابد إنها كانت ستتحوّل تحت وطأة الظروف التي مرّت بها الى ظاهرة عميقة المعنى، لكن على العالَم نفسه ان يتغيّر برمته، لكي يناضل المرء من أجل هذه الظاهرة. بدأ أخيراً يظهر لها نوعاً من التنازل. بعد بضعة أيام من الفراق بدت له بعيدة عنه، لأنه كان عاجزاً عن إصلاح الغربة في حياتها الشديدة البساطة،هذه الغربة التي كان يشعر بوجودها كلّ يوم.

وبما انه كان قليل الكلام عندما يجلس على سرير تونكا، فقد أخذ يكتب إليها رسائلَ، يحدثها فيها عن أمور كثيرة كان عادة يخفيها عنها. كتب إليها بجديّة، تقريباً، كما لو أنه يكتب الى عشيقة

عظيمة، لكن حتى هذه الرسائل كانت تتوقف دائماً أمام عبارة: أني أثق بكِ!

غير ان تونكا لم تردّ على رسائله، فأصابته الدهشة وخطر في ذهنه انه لم يبعث برسائله أبداً، فضلاً عن انها لاتمثل رأيه على وجه الدقة، بل كانت مجرد حالة ما، أرادت ان تعالج نفسها من خلال الرسائل. لاحظ أيضاً انه كان في وضع أفضل بكثير من وضع تونكا، لأنه يستطيع على الأقل التعبير عن مشاعره، بينما كانت تونكا عاجزة عن ذلك. في هذه اللحظة بالذات إستطاع ان يتعرف عليها بوضوح تام: إنها ندفة ثلج سقطت بمفردها في نهار يوم صيفيّ. لكن في اللحظة التالية أصبح هذا التفسير غير مقنع تماماً. ربما كانت مجرد فتاة طيبة ولا شيء أكثر من ذلك. ثم مضى الزمن سريعاً. وذات يوم باغته النبأ المفجع: ان أجلها بات وشيكاً، فأخذ يكيل اللوم الى نفسه ويعاتبها عتاباً مرّاً بسبب الطيش الذي منعه من ان يكون رحيماً معها.

ولأنه لم يكن يخفي شيئاً عن تونكا، فقد روت له هي بدورها، طيفاً ٍأته في إحدى لياليها الأخيرة، إذ انها كانت تحلم أيضاً. «أدركت في المنام»، قالت له، «أني سأفارق الحياة قريباً، فشعرت بسعادة غامرة بشكل غير مفهوم. كنت أحمل في يدي كيساً صغيراً من الكرز. فكّرت لحظة ثم قلت في نفسي: ماذا دهاك، بإمكانك إلتهام الكرز قبل حلول الموعد. . . !»

وفي اليوم التالي لم يعد قادراً على رؤية تونكا.

XIV

قال في نفسه: ربما لم تكن تونكا طيبة القلب مثلما أوهمت نفسي، لكن، هنا بالضبط، تجلّى جوهر طيبتها الغامض والذي من

شأنه أيضاً ان يكون من نصيب كلب.

إجتاحه ألمٌ كاسحٌ كالإعصار. إني لااستطيع الكتابة إليك بعد الآن، ولا أستطيع رؤيتك! ثم دوّى العواء في أركان روحه المتصلبة. «لكنّي سأكون الى جانبك كما الله العزيز»، هكذا قام يعزّي نفسه دون ان يفكّر في شيء محدد. تمنى لو انه يستطيع الصراخ: أرحميني، ساعديني، أتوسل إليكِ، أركع تحت قدميك! ثم أخذ يخاطب نفسه بحزن: تخيّلْ ان هناك إنساناً يمشي وحيداً على جبال الغيوم، يرافقه كلب، يمشي على بحر الغيوم!» في هذه اللحظة شعر بعذاب الدموع التي كبرت وصارت مثل قبّة السماء، إلا انها لم تنهمر. أخذ ينسج أحلام تونكا وهو في حالة الصحو. حلمَ ذات مرّة انه لو تبدد أمل تونكا فانه سيتقدم في هذه الحالة ويقف الى جانبها، في معطفه الإنجليزي ذي المربعات البنيّة الكبير، الذي إذا ما فتحَ أزراره سينكشف هيكله الأبيض النحيف عارياً من الأسفل، تزينه قلادة دقيقة عُلّقت فيها عروة رنّانة، وسيتحول كلّ شيء الى يوم محدد كانت تعلم به تونكا تماماً.

بدأ يحنّ الى تونكا مثلما كانت تحنّ إليه. آه! إنها لم تكن مرغوبة بقدر كاف، ولم يحاول أحد إغراءها. كان من الأفضل لها لو ان أحداً ما غازلها فتستطيع الإشارة بألم دنيوي الى هشاشة هذه العلاقات. عندما تعود مساءً من المتجر فانها تكون مشبعة بأحداثه الصاخبة الطريفة والمثيرة للقرف، تكون أذناها معبأتين ولسانها يتحدث بإستمرار من الداخل، غير ان قلبها ليس فيه متسع لأي رجل غريب. وإنْ لم تكتف بذلك ينتابها هاجسٌ بانها كبيرة القلب ونبيلة وطيبة، وليس مجرد بائعة في متجر، شاعرةً انها ندّ كفوءٌ تستأهل قدراً عظيماً، لذلك فهي تعتقد انها صاحبة حقّ فيه بالرغم من الفارق الكبير. إنها لاتفقه شيئاً من هذا الذي كان يفعله، ليس لأن ذلك لايعنيها فحسب، بل لأن

صاحبها نفسه كان أصلاً إنساناً طيباً، لهذا فقد كانت تحسبه ملكاً لها، لأنها، هي أيضاً، طيبة مثله، وذات يوم لابد ان يُشيدُ قصرٌ من الطيبة يقيمان فيه متوحدين لا يفترقان أبداً.

لكن كيف كانت هذه الطيبة؟ اللاعمل. اللاوجود. شعاع خافت كلّما إنفتح معطف السفر. والزمن مرّ على عجل. لكنه مازال متشبثاً في الأرض وفي رأسه فكرة تقول: إني أصدقك، فكرة لم ينطقها بقناعة تامة، فقال مستدركاً: حتى لو ان كلّ شيء كان هكذا، فمن ذا الذي كان سيعلم به! لا سيما بعد ان فارقت تونكا الحياة!

XV

كان قد أعطى الفرّاشة نقوداً فتحدثت له عن كلّ شيء. قالت ان تونكا تبلغه تحياتها. هنا خطر في ذهنه شيء كالقصيدة التي يهزّ لها المرءُ رأسه: ان تونكا لم تكن المرأة التي عاش معها، بل انها هاتف هتفَ به. أخذ يردد هذه العبارة وهو يهبط الى الشارع. كان العالم يحيط به من كلّ جانب. كان مدركاً تماماً انه قد تغيّر، وانه سيتغيّر بعد ذلك مرّة أخرى، وسيكون ذلك من صنعه هو، وليس لتونكا أي فضل فيه. لقد سكنت توترات الاسابيع الأخيرة، أو بالأحرى سكنت توترات إختراعه العلمي الأخير، فأصبح منتهياً تماماً. كان يقف تحت النور ، بينما كانت تونكا ترقد تحت التراب. عندما التفت لمحَ من بين الأطفال الكثيرين وجهاً بهرته أشعة الشمس، يبكي بالصدفة ويتلوّى كالدودة نحو جميع الجهات. هنا صرخت في إعماقه الذكرى، تونكا، تونكا، فشعر بها تُبعثُ من باطن الأرض وتصل الى هامة رأسه، بل شعر بها تبعث حية. وقف أمامه في هذه اللحظة كلّ شيء كان يجهله زماناً، فإنزاحت من عينيه عصابات العمى، لكن لمجرد لحظة واحدة، لأن

شيئاً آخر خطر في ذهنه في اللحظة التالية. ومنذ ذلك اليوم كان يخطر في ذهنه الكثير من الأفكار، فصار يشعر انه أفضل نوعاً ما من الناس الآخرين، لأن هناك ظلاً دافئاً صغيراً كان يرقد في أعماق حياته المتألقة، غير ان ذلك لم ينفع تونكا شيئاً، بل نفعه هو، حتى لو مضت حياة الناس بوتيرة أسرع من قدرة المرء على الإصغاء بشكل حقيقيّ الى أصواته الداخلية وإيجاد الأجوبة المناسبة لها.

الفهرست



يُعتبر الكاتب النمساوي روبرت موزيل واحداً من أهم الروائيين في الأدب الألماني الحديث ورائداً من روّاد النثر التعبيري... وفي القصص الطويلة المنشورة هنا نستطيع ان نتلمس بعضاً من العالم الغرائبي لشخصيات موزيل. هناك ثلاث رجال مختلفو الأزمان والمصائر يقفون في مواجهة ثلاث نساء... حالة متفردة من التناقض والإستلاب والتهشم الروحي، يجسدها موزيل بأسلوب تحليلي محكم الدقة صبور وشديد العمق، يبدو من خلالها وكأنه يريد مخاطبة النواحي الخفية واللاواعية في أعماق الانسان.



منشورات الجمل ١٩٩٧